أزمة التذوق الفني عند الشباب

يوسف الغزو





أزمة التذوق الفنـي

عند الشباب

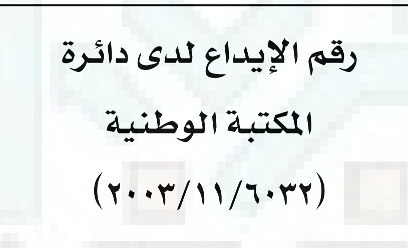
تأليف

يوسف الغزو

عمان – ص.ب : ٩٠٤٤ رمز بريدي ١١١٩١

تليفون المنزل: ٤٧٨٤٠٦٩

تليفون: ٦٦٢٢١٧٨ /٠٧٩


رقم الإيداع لدى دائرة

المكتبة الوطنية

(٢٠٠٣/١١/٦٠٣٢)

٣٦٢,٧

الغزو، يوسف حسن

أزمة التذوق الفني عند الشباب/ يوسف حسن الغزو..

عمان: المؤلف، ٢٠٠٤

(٩٦) ص.

ر.إ. : ٢٠٠٣/١١/٢٣٠٦

الواصفات: / الشباب// الأدب العربي// المشاكل الاجتماعية/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

تقديم

لماذا الشباب ؟ ... ولماذا التذوق الفني ؟ سوف أحاول الإجابة في هذه المقدمة عن هذين السؤالين ، كمدخل إلى الكتابة في موضوع هذا الكتاب.

أ- لماذا الشباب؟! والإجابة تبدأ ببديهة معروفة ومتفق عليها.. وهي من تحصيل الحاصل: هذه البديهة تقول: أن الشباب هم أمل الأمة ومستقبلها، وشكل وجودها القادم وهم قادتها المستقبليون شئنا أم أبينا، وهم الذين سوف يقررون مصيرها شئنا ذلك أم أبينا أيضاً، وهم البصمة التي لا تزول إلا برحيلهم .. وبعد تسليم الراية إلى جيل جديد ، هذه هي سنة الحياة.. وعليه فإن الاهتمام بالشباب اليوم هو اهتمام بمستقبل البشرية لا لجيل واحد.. بل لأزمان عديدة قادمة... هذه كما أسلفنا بديهية.. ومن صلب هذه البديهية ينبع الجواب، لقد اخترنا جيل الشباب لأن:

١- الشباب أمانة: والأمانة عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها لأنها ثقيلة، فالأمانة ينبغي أن تؤدى على وجهها الصحيح دون زيادة أو نقصان، فكيف إذا كانت الأمانة تمثل الشباب؟ ذلك الجيل الطالع إلى الحياة كما تطلع براعم الزهرة قبل تفتحها ... أنهم نويّات الوجود الإنساني، وغراس بستان الحياة ... بل هم أجمل غراسة .. إلا تستحق هذه الغراس العناية والرعاية؟

- ألا تحتاج هذه الغراس إلى من يسقيها بماء الحكمة ... ويسمدها بمادة التجربة .. ويشذب أغصانها بيد المجرب الخبير؟

- ألا تحتاج تلك الغراس مصدات لرياح الشر والخوف والمخاطر؟

– ألا تحتاج إلى من يدفنها ويحميها من صقيع الوحدة والتشرد والضياع؟

– وألا ... وبدون ذلك فإن الغرسة سوف لا تنمو .. وأن نمت فإنها سوف تتشكل كطفح شيطاني زقومي ... لا ظل ولا ثمر .. لن تأتي أكلها لا مرة ولا مرتين ... وستكون شوكاً يشوه وجه الحياة دون ريب.

وهكذا هم الشباب ... الأمانة الغالية ، يحتاجون في مراحل نموهم المبكرة إلى الرعاية والعناية والسقاية والسماد ومصدات الرياح، ولا شك أن المثل الذي ضربناه عن الشجرة يظل قاصراً عن إدراك الدور الحقيقي للشباب في صناعة المستقبل.

لأنه أهم منه وأكثر خطورة؛ فالشجرة ذات الطلع الزقومي نستطيع أن نجتثها ونزرع غيرها ساعة نشاء، ولكن الغرس الإنساني اللاسوّي هو الخطر بعينه .. فليكن غرسنا الإنساني سوياً إذن ... هذه هي الأمانة. هل رأيتم كم هي غالية وعزيزة؟!

٢– الشباب عجينة طرية: وهذه العجينة قابلة للتشكيل الإيجابي أو السلبي ... والشباب في هذه المرحلة من العمر يكونون في حالة من تشكل الوعي كما تتشكل العجينة – مع الفارق بين الإنسان والجماد –، ويكونون لذلك في حالة من امتصاص المخزون المعرفي .. ولديهم مساحات شاسعة داخل صفحة الدماغ البيضاء لحفظ هذه المخزون الاستراتيجي من المعرفة، فهم يشاهدون ويسمعون ويتأثرون ويتعلمون ... فكأن في أدمغتهم عشرات من الكاميرات المجهزة بأحدث الأفلام تلتقط وتسجل ... وتتعامل مع ما تلتقط وتسجل في أعماق الوعي .. وهذه المادة المسجلة هي التي تشكل في قادم الأيام الحالة التي سيكون عليها الشباب .. ونمط سلوكه أو معارفه في

الحياة ... فلنتق الله ... ولنحذر كاميرات أولئك القادمين إلــى الحيــاة بقلــب أبيض وفطرة نقية .. ولا نضع في مرمى كاميراتهم اللاقطة الدقيقــة إلا مــا يصلح أن يكون زاداً لعقولهم، ونقاء لإنسانيتهم ورافداً لوعيهم، مهما امتد بهم العمر ..

فالشباب في مرحلة ما من مراحل أعمارهم هم الأكثر قابليــة للتــأثر والتعلم والاستيعاب والتشكل، كما تتشكل العجينة، بقي أن نعرف أن تعاملنا مع الشباب يأخذ بعين الاعتبار شخصية الشاب ووعيه وهوايته ... ودورنا في تشكيلها يقتصر على النصح والمتابعة والتوجيه.

٣- الشباب قوة مؤثرة: وتأثير هذه القوة واضح وضوح النهار ... فهم الذين يديرون عجلات المصانع ... وهم الذين يدافعون عن الوطن عند الخطر .. وهم الذين يزرعون الأرض ويستخرجون كنوزها ... والأهم من ذلك فهــم الجيل الذي سيبني شكل القادم من الحياة سلباً أو إيجاباً ...

فالشباب إذ قوة مؤثرة في المجتمع ... حاضره ومستقبله .. بل أنها لتكاد تكون القوة الرئيسية التي من خلالها تبرز ملامح المجتمــع، ودوره في الإسهام بالحضارة الوطنية والإنسانية. إذ يقتصر دور الجيل الذي مضى عمره أو كاد على الإرشاد والتوجيه فهو جيل قام بما عليه .. وعمل جهده ... وآن له أن يسلم الراية إلى هذا الجيل ومعها خلاصة الحكمة والتجربة، إلا أن الأخذ بالنصيحة أو عدمها، مرهون بالشباب القادرين علــى تحويــل القول إلى فعل، بمعنى القادرين على صناعة الواقع، فهم قد يسخرون مــن نصائح الرعيل الأول .. وقد يطلقون عليهم أحياناً الدقة القديمة «... وقــد يجاملونهم في هذا الأمر أو ذاك، إلا أنهم في النهاية قد يحاولون الأفــلات من سطوة ذلك الجيل بدقته القديمة...».

والمطلوب إذن من هذا الجيل أن لا يعترضهم فيما يراه مفيداً لهم، ومسايراص لعمرهم ومتمماً لشخصياتهم المستقبلية .. ولكن عليهم أعني جيل الكبار – أن يكونوا بالمرصاد لكل محاولة لخروج أجيال الشباب عن منهج الحق والخير والجمال .. إلى الانحراف القاتل أو السلوك الطائش ... أو إلى مخاطر لا يعرف مداها إلا الله .. عليهم أن يقوموا مسيرتهم بالنصح والإرشاد ... فإن استعصى عليهم الأمر ... فبالقوة الواعية المدروسة ..

وهنا لابد من الإشارة إلى أنه على الشباب أن يدركوا أنهم يشكلون الحلقة الوسطى بين ماضٍ غابر لم يبق منه إلا تجارب مكتوبة أو مسموعة، وبين مستقبل قادم حافل بالمسؤوليات والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. وعلى الشباب أن يوازنوا بين طرفي المعادلة فيستفيدوا من تجارب الماضي وحكمة أهله .. وبين متطلبات المستقبل ومتغيراته، ولكن في النهاية لابد من الاعتراف بالحقيقة التي تقول: الشباب هم القادة .. وهم القوة المؤثرة في المجتمع حاضره ومستقبله.

الشباب أكبادنا: والتي وصفها الشاعر أنها تمشي على الأرض ... فهم غذن قطعة منا ... وامتدادنا الزمني اللانهائي، فالعلاقة بين الآباء والأبناء مختلفة تماماً عن أية علاقة أخرى: تجارية كانت أم اجتماعية أم عاطفية، علاقة الآباء بالأبناء علاقة جميلة، بل مطلقة الحميمية ليس كمثلها علاقة أخرى ... فيها تذوب الأنا، وتتجلى روعة الحب المطلق في أروع صورها حتى يصل إلى أعد من حب الذات في بعض الأحيان، فكم قصة سمعناها عن والد تبرع بإحدى كليتيه إلى ولده المريض ... ولو طلب الأخرى لما بخل بها .. وكم أم احترقت بالنار وهي تقتحم أتونها لإنقاذ ولدها الذي يصارع الحريق فنجا الولد وقضت الأم في سبيل نجاته راضية مطمئنة

!، فكم من الوالدين ضحوا بأموالهم، وأرواحهم، أو حتى كبريائهم في سبيل أبنائهم، وقد تصل التضحية في بعض الأحيان إلى الروح، فيموت الوالد أو تقضي الوالدة في سبيل الأبناء .. هذه العلاقة المتميزة الفريدة بين الآباء والأبناء والتي لا تكون بهذا المستوى لو عكست .. لا تنطبق على الإنسان وحدة ولكنها تتعداها إلى الحيوان والزواحف والحشرات أيضاً .. ومن لم يصدق فليجرب الاقتراب من هرة حولها أولادها، ثم يحاول أن يلحق الأذى بأحد أولادها أو يختطفه، ثم ينظر كيف تكشر الهرة عن أنيابها ثم تتحفز للانقضاض على المعتدي .. وهي تعلم أنها قد تموت دون ذلك، حدثني أحدهم بهذه الحكاية قال:

«كنت قد نقلت إلى إحدى سفاراتنا بالهند، وسكنت عند وصولي في بيت استؤجر لي، وقد عثرنا أثناء إعداد المنزل على صل حية فهممت بقتله ... إلا أن أحد العاملين في إعداد المنزل من السكان الأصليين قد نصحني ألا أفعل، وحين أبديت له رفضي أن اعيش مع صل حية في بيتي نصحني أن ألقى به خارجاً في الحديقة ففعلت، وأثناء الليل وكما علمت ذلك فيما بعد ... جاءت الحية تبحث عن وليدها «الصلّ» ولما لم تجده أدركت أنني قد ألحقت به الأذى ... فتسللت إلى الثلاجة وفتحتها بطريقة ما، ثم نفثت من سمّها بإحدى علب الحليب لأطفالي...

وفي اليوم التالي لاحظت ما جرى في الثلاجة .. وانتبهت للعلبة المسمومة... وتحدثت بهذا إلى الهندي الذي افترض أن الحية قد جاءت لإلحاق الأذى بأطفالي كما ألحقت الأذى بوليدها .. وحينما سخرت منه قال: أعد الصلّ إلى مكانه ثم انظر ماذا يحدث فأثار هذا الأمر حب استطلاعي .. فبحثت بمساعدة الهندي عن الصلّ حتى وجدناه وأعدناه من الحديقة إلى

مكانه ... وفي اليوم التالي وجدنا الثلاجة مفتوحة وزجاجة الحليب المسمومة وحدها هي المدلوقة على الأرض، وحينما فحصنا الحليب المسكوب وجدناه مختلطاً بسم أفعى.

إذن فإن الحية حينما عاد إليها ولدها، وأدركت أن صاحب المنزل لم يسبب له الأذى، أسرعت إلى العلبة المسمومة وسفحت ما بها من الحليب على الأرض خوفاً من إلحاق الأذى بولده ..

قصة أغرب من الخيال .. وقد لا تصدق .. ولكن الأولاد هم أكبادنا التي تمشي على الأرض، ولأنهم هكذا .. فإليهم ينبغي أن يتوجه الاهتمام والنصح والرعاية.

ب- لماذا التذوق الفني؟؟!

عند الإجابة على هذا السؤال ، لابد من الاعتراف بأن التذوق الفني هو جانب هام من جوانب بناء الشخصية السوية القادرة على القيام بواجباتها على خير وجه وعليه فإن اختيار التذوق الفني كمادة لهذا الكتاب قد جاءت:-

١- لأن الكتابة في هذا الموضوع نادرة أو معدومة، وهناك من يتحرج من الكتابة فيها أو حولها، رغم أن الكثيرين من الكتاب قد طرقوا موضوع الشباب بكل أبعاده الصحية والبيئية والتعليمية والنفسية.

كما كتبوا في الأخطار التي تهدد مصيرهم وحياتهم، كالمراهقة والتدخين والمخدرات والمسكرات والانحراف الأخلاقي.

كما كتبوا في دور البيت والمدرسة في رعاية الشباب .. وفي أهمية الصداقة ومؤسسات رعاية الشبا ب وتنشئة الأجيال، ولكنهم لا يتطرقون إلا نادراً وهامشياً إلى مسألة التذوق الفني الجمالي ... على اعتبار أنه جانب

كمالي ترفي وليس له تأثير كبير على مسيرة الشباب وصياغة دورهم الهام والأساسي في الحياة ..

٢- لأن الكتابة في هذا الجانب تخاطب الأحاسيس والأذواق الأحلى والأجمل في الكائن البشري .. وتنمي فيه عشق الجمال، فتستقيم في أعماقه معادلة الوجود البشري، وتتفاعل في وجدانه مؤثرات عشق الحياة، فينأى الشاب عن العقد والخوف والكآبة .. ويصبح قادراً على أداء دوره في الحياة بحب وإتقان وتفاؤل، هناك مثل يقول: قل لي من تصاحب أقل لك من أنت ... أو قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت ... ولكن قلما كان بالإمكان تعديل هذا المثل ليصبح: قل لي ماذا تشاهد أو تسمع لأقول لك من أنت؟

٣- لأن هناك علاقة مؤكدة بين التذوق الجمالي .. والحاسة الجمالية للفرد ... وبين القوى العقلية والنفسانية له، وفي هذا السياق نقتطف بعض الفقرات من كتاب «الشباب قضية ورعاية ودور لمؤلفه الأستاذ خليل الفاعوري» .. ويقول في معرض حديثه عن البرامج الفنية للشباب والرعاية الفنية لهم - «ونقصد بالرعاية الفنية للشباب، هو تنمية الذوق الجمالي والحاسة الجمالية لدى الشباب: «نظراً لوجود العلاقة القوية بين الحاسة الجمالية للفرد، وبين القوى العقلية والنفسية له، وكذلك قدرته على الإدراك الحسي وعلى التخيل والابتكار والإبداع» .. وفي فقرة أخرى يقول:

- «وقد فسر الفيلسوف شارل لالو الفنون الجميلة وفق التصنيفات التالية، وشاركه في هذه التصنيفات عدة علماء من المدرسة الأستاطبيقية وعلماء الجمال وهي:

١- الفنون اللمسية العقلية مثل الرياضة والرقص.

٢- فنون البصر مثل العمارة والرسم.

٣- فنون السمع مثل الموسيقى والغناء والآداب.

وهناك فنون أخرى تجمع بين البصر والسمع مثل فن التمثيل والمسرح والسينما، وكذلك فن تصنيع الروائح وفنون أشكال الزينة؟

وفي فقرة غيرها يقول المؤلف: «الرعاية الفنية للشباب إلى جانب فوائدها العقلية في الابتكار والإبداع، وتحريك القدرات العقلية لدى الشباب فهي ذات قيمة أخرى لها، أهميتها في تحريك إرادة الفرد واستنساخها نحو الحب والخير والجمال، وتوجيه هذه الإرادة نحو سلوك جميل ومحبب، وتساهم في تطهير الأهواء من الانفعالات النفسية السلبية، وتخفف من التواترات النفسية عن طريق تفريغ الأهواء إلى ما هو نافع وجميل، وتساهم الرعاية الفنية في النمو العقلي والوجداني، وتقود إلى الأخلاق الحميدة وتمجد الفضيلة .. وتتوجه نحو القدوة الحسنة، وتقود الشباب نحوها باختيار طوعي محبب لنفوسهم، بحيث تبرز منه فئة أكثر تأثراً بالفن وتأثيراً على الغير». انتهى الاقتباس.

٤- لأن الارتقاء بالتذوق الفني هو مسؤولية تربوية وإعلامية ... حتى أن دور المسؤولية الإعلامية هو أكبر من المسؤولية التربوية ونظراً لاختراق الاعلام لكل واجهات الأداء الإنساني دون تمييز ... ونظراً لدور الكلمة المكتوبة في صفحة أو مجلة أو كتاب في تشكيل المعرفة وصقل الطباع .. فإنه تظهر بوضوح أهمية هذا البحث في التصدي لأي خلل أو انحراف قد يحدثه جانب آخر من جوانب الإعلام .. وهو الإعلام المرئي والمسموع .. والذي هو أكثر تأثيراً وأشد خطراً، لابد إذن من وضع النقاط على الحروف، والتصدي لظاهرة «الجمهور عايز كدة». والوقوف بحزم

أمام الفن الهابط لكي لا يطغى على الأصيل، ثم يطرده مـن الـساحة شـر طردة كما حدث ويحدث في هذه الأيام.

إذا نظرنا إلى ساحتنا الفنية العربية لوجدنا أنه قد أصبح لدينا المئات من المطربين .. وأمثالهم من الموسيقيين والملحنين وكتاب الأغاني التـي يسفهونها باسم الشباب والشباب منها ومن منتجها براء .. فنسمع الأغنية الشبابية واللحن الشبابي ..الخ، وإذا ما نظرنا إلى الساحة أيـضاً لوجـدنا عشرات من الرسامين .. وآلاف من الكتاب والشعراء ومئات المـسرحيين .. كلهم يمجد نفسه .. ويدعو إلى مذهبه ويطرح قضية الريادة والتجديـد ... باسم الشباب ... حتى اختلط الحابل بالنابل، وتوارى الفن الأصيل على استحياء .. وفتح الباب على مصراعيه لسقط المتاع من الفنون الهابطة .. ولكن وللأسف فإن هذه الفنون قد تمسكنت حتى تمكنت .. ثم قبضت علـى ناصية الذائقة الفنية للشباب ... وأوشك الفـن الأصـيل ... مفجرالإبـداع وتؤام الذائقة أن يمرض ويموت قهراً.

هذه الأسباب المتعلقة بالشباب ... وأذواقهم الفنية هي التي حملتنـي على وضع هذا الكتاب من باب قول كلمة الحق أن شاء الله .. والإسهام في التصدي لعواصف تدمير أذواق الشباب التي تهب من كـل اتجـاه .. وأداء واجب تقتضيه أمانة حمل القلم ومسؤولياته .. وذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .. والعودة – ولو تدريجياً – إلى منابع الفن الحقيقي الأصيل..

-١-

بين الماضي والحاضر

الزمان وحدة متكاملة، لا قديم فيه ولا حديث، فما كان حديثاً في العصر الأموي قد أصبح قديماً في العصر العباسي، وحينما ذهب العصر العباسي أضحى حديثه قديماً، فالموضوع غذن نسبي لا حدود ثابتة مطلقة له.

فالزمان إذن هو عبارة عن لحظات متحركة ... متماسكة على شكل حلقات لا نهائية البداية ولا نهائية النهاية إلى يوم القيامة، لحظات تمر بما فيها ومن فيها وتأبى إن تعود تاركة المجال لغيرها، فما مر منها أصبح ماضياً .. وما هو يمر أصبح حاضراً .. وما سوف يأتي يصبح مستقبلاً .. ومن هنا فإن الوحدات الزمنية .. أو اللحظات هي من نسيج واحد، تمر دون انقطاع، ولا تتوقف لأي سبب .. ولا تستجيب لأي نداء بشري، ولا تخضع لأي أمر بشري أيضاً، وما مر منها قبل زمن طويل – الطول والقصر هنا مسألة نسبية – كان ماضياً، فنقول: كان ذلك في الماضي، ولكن عن أي ماضٍ تتحدث؟ فامرؤ القيس الشاعر الجاهلي عاش في الماضي .. والزمن الذي مرّ قبل ساعة هو أيضاً من الماضي ولكن مع الفارق الزمني الشاسع بني الماضيين..

إذن الماضي هو زمن مرَّ نذكره ونعود إليه لأغراض محددة، ولكن المتفق عليه أنها لحظات ذهبت ولن تعود، ولكن عنصر الزمن فيها كان واحداً .. فالدقيقة في زمن «خوفو» هي الدقيقة نفسها في عصر الفضاء، إذن فلندع الزمن وشأنه .. فما ذهب منه أطلقنا عليه اسم الماضي .. وأما الحاضر فإنه لحظة لا وجود لها، أنه لحظة تتشكل ثم سرعان ما تنضم إلى ركب الماضي، لحظة لا نستطيع أن نقبض عليها مطلقاً، أنها تمضي بأسرع

من لمح البصر .. وأسرع من الضوء ... بل وبسرعة لا نهائية خارقة .. فإذا قلت على سبيل المثال: «أنا الآن أشرب الماء» فما أن تنتهي من هذه الكلمة حتى تكون الجملة غير صحيحة. ويغدو الصحيح: «أنا شربت الماء»..

فالحاضر .. إذن بمعناه الدقيق لا وجود له .. ولكننا تعارفنا على اختيار شريحة زمنية قد تقصر لتصبح دقائق معدود .. وقد تطول لتصبح عشرات السنين ونطلق عليها «اسم الحاضر» فنقول على سبيل المثال متحسرين على الماضي: «أية .. أين أنت يا أيام زمان .. أيام جدي .. فقد كان الخير كثيراً، والبركة عامّة طامّة .. والحب بين الناس سائداً .. الخ».

إذن فقد اسقطنا الماضي على أيام الجد وما قبلها، فأصبح عصر الأب الذي يكون قد امتد عشرات السنين .. وعصر الابن المتحدث الذي يكون قد امتد عشرين سنة أو أكثر هو حاضراً .. وما دونه أو قبله هو الماضي ..

وهناك من يتحدث عن معاصرة تمتد لمائة من الأعوام فيصنف أحمد شوقي المولود قبل مائة وأربعين عاماً تقريباً شاعراً معاصراً أو حتى حديثاً، أما الشعراء القدماء فهم امرؤ القيس والمتنبي والبحتري والفرزدق. وقد تقصر لحظة الحاضر لتصبح دقائق معدودة .. فيقول لك من يشعر بألم طارئ ألمّ به: «لا أدري ماذا حدث لي .. كنت كالحصان .. أما الآن فلا أدري ماذا حدث لي. إذن فحاضر ذلك الإنسان المتألم هو غير ماضيه، وبينهما ثوانٍ معدودة فقط..

هذا بإختصار مفهوم الزمن في معادلة الماضي والحاضر وما يهمنا من هذه المعادلة في هذا الكتاب .. هو ذلك الاختلاف في العادات والأذواق والأحاسيس الجمالية التي تتشكل مع مرور الزمن، ويسهم تشكيلها في قلب

الكثير من المفاهيم والمعايير الذوقية إتكاءً على قوله: «لقد ذهب ذلك الزمان .. ولابد أن تذهب معه الذائقة التي تشكلت فيه، والحقيقة أن هذه المقولة خاطئة من أساسها، يهرع إليها أولئك الذين تثقل عليهم الموازين والاستحقاقات في مواجهة الفن الأصيل، فحينما لا يستطيع الفنان أن يجاري الفن الأصيل يقول: «أن ذلك الفن قد ذهب .. والآن هو عصر الشباب .. فالدور لهم .. أما ما ذهب فهو من الدقة القديمة .. والقائلون بوجوب بقائه هو رجعيون متخلفون وأعداء للتقدم والحداثة .. ولكن هل يستطيع أولئك أن يقولو: أن أحمد بن الحسين المتنبي قد ولى وذهب عصره إلى غير رجعة ... وأن للشباب اليوم شعرهم المختلف تماماً عن شعر أبي الطيب؟ وقد يقول آخرون أن الفنان سيد درويش قد اصبح ماضياً في الغناء والموسيقى .. ولا مبرر لحضوره في عصر الشباب .. وكذلك قد ذهب مسرح يوسف وهبي .. وانتهى عصر العقاد وطه حسين وحتى نجيب محفوظ .. وأصبح في عهدة الماضي، ولا شأن للشباب به، كلا .. فالمتنبي شاعر الماضي والحاضر .. وكذلك سيد درويش فنان الشعب هو فنان الماضي والحاضر .. وطه حسين هو عميد للأدب حتى إلى ما بعد مئات الأعوام ..

أريد أن أخلص من معرض الأسهاب في الحديث عن الماضي والحاضر في هذا الكتاب إلى نتيجة تقول: «التذوق الفني لا عصر له» والفن الأصيل لا ماضي له.. بل هو حاضر كحضوره في زمانه بل أكثر حضوراً وأشد تأثيراً في بعض الأحيان..

ولنا أن نتساءل: هل غاب شكسبير عن المسرح الإنجليزي حتى بعد أربعة قرون مرت على رحيله؟ التذوق الفني الصحيح هو الذي يحفظ ما

مضى من الفن ثم ينقل إلى غيره بعده .. أنها حالــة إنــسانية ســوية .. ووسيلة بالغة التاثير في حفظ الموروث الفني بأشكاله .. وجدار منيع أمام رياح العبث والإسفاف التي قد تهب – وقد هبت فعلاً – على حاضر أجيالنا فدمرت ذائقته الفنية تدميراً، وعلينا أن نوقف هذا التدمير بأي ثمن..

-٣-

مفردات العَصْر

هذه العبارة على جانب كبير من الأهمية ، إذ من خلالها نستطيع أن نحلّ الكثير من الأشكالات المتعلقة بالشباب وأذواقهم وهذه العبارة تعني أن لكل عصر مفرداته الفنية .. ولكل حقبة زمنية طابعها وبصماتها في مجالات الغناء: كلمات ولحناً وأداءً .. وفي مجالات الأدب: شعراً وقصة ورواية ومقالاً .. وفي مجالات الرسم بكل أشكاله، وأعني هنا بمفردات العصر، تلك المفردات المتداولة البسيطة المفهومة التي تصل إلى وجدان المتلقي بسهولة .. سواء أكانت مفردات قصة في كتاب، أو مفردات قصيدة في ديوان شعر .. أو جملة موسيقية في لحن من الألحان .. أو لمسة معبرة من ريشة فنان ..

أما التجدد في المفردات من عصر إلى عصر فلا يعني اختلافها لا يعني نبذ ما قبلها .. ولا يعني كذلك الاغتراب عن المواقع الأساسية الرئيسية لتلك الفنون باسم التحديث والتطوير .. صحيح أن مفردات شكسبير نفسه .. بمفرداته العظيمة المعبرة عن روح عصره لم يذهب .. بل ظل ادبه باقياً معبراً في وجدان حتى أولئك الذين هاموا بشعراء العصر وتذوقوا نكهة مفرداتهم الحديثة البعيدة عن مفردات شكبير ولغته الشكسبيرية أما شكسبير نفسه .. والذي يضعه كثير من النقاد في مقدمة شعراء البشرية دون منازع .. فلن تجد من يقول بذلك .. لأن شكسبير حاضر بشعره المسرحي وتأثيره العارم ووجوده الطاغي، وقامته العملاقة بدليل أن المسارح في لندن ما الت تعرض بعض مسرحياته منذ مئات الأعوام .. فتذهب أجيال من

الممثلين وتأتي أخرى وتهترئ خشبة المسرح ثم تجدد بأخرى، ولكن كلمات شكسبير لا تهترئ، ولا تمل الأجيال سماعها، متمثلة روح ذلك العصر الـــذي كتبت فيه، فالمتفرج يستمع إلى العبارة أو المفردة المسرحية فلا يرفضها .. ولا يشعر بها .. ولكنه يردها إلى عصرها، ويستلهم معانيها من منابع ذلـــك العصر .. إلا أنه غير ملزم باستعمالها في بيته أو مع أولاده .. ولا حتى في مفرداته الشعريه أو الأدبية .. ان كان شاعراً أو أدبياً.

وكذلك هو الحال في مجال الموسيقى.. فإن بيتهوفن المتـــوفى ســـنة ١٨٣٧ .. أي منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان، قد تعامل مـــع جمـــل موسيقية «المفردات» تعاملاً نابعاً من وحي ذلك العصر ... وموسيقيو هذه الأيام غير ملزمين باستعمالها .. ولا بالنسيج على منوالها .. ولكن جمـــل بيتهوفن الموسيقية والتي هي مفردات عصره الموسيقية، ما زالت تعـــزف على أرقى خشبات المسارح في العالم كله.. وتستقطب إليها جماهير غفيرة حتى من بين الشباب .. ولقد بليت الأدوات التي كانت تعزفها وجـــددت .. ولكن تلك الجمل الموسيقية لم تبل، بل تجدد الإحساس بها كمـــا تجـــددت أدوات عزفها .. وظل صاحبها الغائب منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان حاضراً بما أبدع رغم ظهور جمل موسيقية جديدة راقية وإبداعية أيـــضاً، ولها جمهورها ولم تؤثر هذه الإبداعات الجديدة على جمـــل بيتهـــوفن ولا على مكانته الموسيقية .. بل امتدت بها ومعها إلى آفاق جديدة، وعبر أجيال جديدة .. وبمفردات عصرية جديـــدة إلـــى مرابـــع الخلـــود، فلـــو نـــسج الموسيقيون بعد بيتهوفن على منواله .. وتقوقعوا داخل إطاره .. وحاولوا تقليده – لا استلهامه – فإن الإبداع سوف يتوقف .. حتى لو ظهر بيتهوفن جديد فنحن لا نريده ..

مفردات العصر إذن هي التي تحدد القدرة على التطور وهـي التـي تميز القديم من الحديث في كل فن من الفنون .. ومن هنا فإنه لا يجوز أن نجلس ونتحسر على المتنبي ونقول: «هيهات لقد ذهـب المتنبـي، أيـن عباراته الجزلة؟ أين صوره الرائعة؟ أين تفـرده فـي وصـف المعـارك والأحداث؟ أين مدحه وهجاؤه؟ .. نعم لا يجوز أن نفعل ذلك .. ولسنا فـي حاجة عبر هذا الزمان إلى متنبي جديد .. فلدينا شاعر كنزار قباني علـى سبيل المثال، أنه لا يقل عن المتنبي إبداعاً وشـاعرية، ولكـن بمفـردات عصرية جديدة أحسن الشاعر استعمالها، ووظفها عبر موهبتـه الـشعرية المتغيرة كما وظف المتنبي عبارات عصره ومفرداته لموهبة شعرية فـذة، صحيح أن الشاعرين مختلفان، مختلفان تماماً في الشكل والمضمون .. ب لهما على طرفي نقيض تماماً ولكنهما كليهما شاعران كبيران خالـدان .. فنزار قباني هو شاعر الحب والمرأة .. وقلما كتب المتنبي شعراً في هذين المجالين .. والمتنبي مدح القادة والأمراء والحكام .. ولم يكتب نزار قباني ولا بيتاً واحداً من الشعر يمدح فيه قائداً أو أميراً، لقد كانت صور المتنبـي ومفرداته موغلة في الجزالة والتراكيـب اللفظيـة الهائلـة، والمـضامين المعنوية الفردية .. بينما كانت صور نزار قباني شفافة، تخاطب الوجـدان العاطفي برقة .. وتحمل مضامين إنسانية بالغة العمق .. لقد استعمل كـل منهما مفردات عصره، وكان كل منهما شاعراً كبيراً وشاهداً على عصره..

أن المفردات: مفردات العصر، وما يتبعها من صور ومضامين هـي التي تقوم عليها أسس التجديد، ولنتخيل شاعراً معاصـراً خيـل إليـه أن مفردات عصره غير قادرة على استيعاب معانيه الشعرية العظيمة، فأراد أن يمدح رجلاً رآه يصرع الأسد بسوطه دون سيفهن فهل يستطيع أن يجد بين

مفردات هذا العصر ما يصوغ منها هذه الأبيات التي صاغها المتنبي وهـو يمدح بدر بن عمار الذي صرع الأسد بسوطه .. ويذكر قوة الأسد وبطـشه وشدته ؟؟

أمفعر الليث الهزبـر بـسوطه   لمن ادخرت الصارم المسلولا؟

ورد إذا ورد البحيـرة شـارباً   ورد الفـرات زئيـره والنـيلا

يطأ الثرى مترفقاً من .. تيهـه   فكأنـه آسٍ يجَـس علـيلا

ويدق في الأرض الحجار كأنما   يبغي إلى ما فـي الحـضيض الا

سبق التقاءكه بوثبـة هـاجم   لو لم تصادمه لجـازك مـيلا

في هذه الأبيات عبارات تؤكد روح ذلك العصر وطبيعته حتى مفهـوم البطولة في هذه الأيام قد تغير، وليس هناك ما يدعو إلى مصارعة الأسد أو قتله حتى ببندقيه .. ولنلاحظ كذلك مفردات ذلك العصر: فمن هو الـشاعر الذي يذكر «الورد» وهي من أسماء الأسد؟ ومن هو الشاعر الذي يمـدح السيف ويصفه بالصارم المسلول؟ ومن هو الذي يطلق على الطبيـب فـي هذه الأيام لفظ: الآسي «وعبارة» سبق التقاءكة».

لم تعد مستعملة هذه الأيام لا في الشعر ولا في النثر ولكنه في شـعر المتنبي كانت درة في عقد منظوم من درر ذلك العصر، تـرى لـو عـاش المتنبي في عصرنا، أو بعث إليه بإذن الله مـن جديـد .. وتفـرج علـى الساتالايت، ووضع جهاز الخلوي على أذنه .. وركب سيارة .. أو طيـارة تنقله من حلب إلى مصر أو العراق في أقل من ساعة، وكان المسير إلـى أي منهما يأخذ منه شهراً أو دون ذلك، ماذا عساه أن يكون شعره الجديد؟

سيكون مختلفاً بكل تأكيد .. إلا أن شعره ذاك قد استلهم عبر تخيل عصره، لأنه هو نفسه قد أستلهم مفردات عصره، فعبر عنها أحسن تعبير، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس، وظل يحتل مرتبة الشاعر رقم (١) في الوجدان العربي .. رغم أنه مسبوق بشعراء عظام .. ومتبوع بمثلهم، كيف لا وقد أضـــحى صدر بيت من أبياته الشعرية شعاراً للعمـــل والتفـــوق والإنجـــاز وتحمـــل المسؤولية .. يردده الناس في كل مكان رغم مرور ألف سنة أو تزيد على رحيل قائله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

أما في الجانب الآخر فإن الشاعر نزار قباني لم يستعمل عبارة واحدة من عبارات المتنبي، ولا تشبيهاً واحداً من تشابيهه ولكنه استخدم مفردات عصره، فنظمها كما نظم الصائغ عقداً من اللؤلؤ ولنقرأ هذه المقتطفات من قصيدة له ألقاها في قرطاجة بتونس:

يا تـــونس الخـــضراء جئتـــك   وعلى جبينـــي وردة وكتـــاب

إني الدمشقي الـــذي احتـــرف   فاخضوضرت لغنائه الأعــشاب

احرقت من خلفي جميع مراكبي   أن الهوى أن لا يكـــون أيـــابُ

تبكي الكؤوس فبعد ثغرٍ حبيبتي   حلفت بأن لا تـــسكر الأعنـــابُ

ألحاسب امرأة علـــى نـــسيانها   فمتى استقام مع النساء حساب

ما تبت عن عشقي لا استغفرته   ما اسخف العشاق أن هم تابوا

إلى أن يقول واصفاً دمشق وتأثيرها فيه:

قمر دمشقي يسافر فــي دمــي   وبلابــــل وســـنابل وقبــــاب

والماء يبدأ من دمشق فحيثمـــا   أسندت رأسك جــدول ينــساب

والحب يبدأ من دمشق فأهلهـــا   عبدوا الجمال وذوبوه وذابــوا

لنلاحظ هنا كيف صاغ نزار مفردات عصره شعراً: الوردة .. الــوردة هذه الحروف الأربعة المعبرة عن رمز جمالي خالد .. الوردة بمعناهــا .. ومرآها .. وعبيرها .. وحضورها .. وأنظر أيضاً كيف اســتعمل المتنبــي العظيم حروف الورد. للدلالة على شيء مختلف تماماً .. عــن اســم مــن أسماء الأسد .. ثم مكنته موهبته الشعرية الهائلة، وقدرته اللامحدودة على توظيف الكلمات والعبارات على استخدام هذه الحروف الثلاث التي تــشكل كلمة ورد «لقد وجد لها ثلاثة أمكنة في بيت واحد من بيوت الــشعر فــي قصيدته التي اقتطفنا أبياتاً منها .. وهذا البيت هو:

(ورد) إذا (ورد) البحية شارباً   (ورد) الفرات زئيــره والنــيلا

فمعنى «ورد» الأولى من أسماء الأســد .. و(ورد) الثانيــة بمعنــى «ذهب ليستقي» .. و«ورد» الثالثة بمعنى «وصل».

ونعود إلى نزار قباني ومفرداته النابعة من عصره: الوردة الكتاب، الأعشاب، العناب، الكؤوس، حبيبتي .. الخ. لقد صاغها فأبدع .. كما أبدع المتنبي في صياغة مفردات عصره ... أن سر التجديد يكمن إذن في هذه المفردات، وما نستطيع أن تشكله من صور لها علاقة بنمط الحياة في هذا العصر ..

هذه قضية يأخذ بها دعاة الحداثة الزمام .. فيزاودون على الشعراء الملتزمين أو مدعي الفن الأصيل في كل فرع من الفروع ويقولون: «أن أولئك الملتزمين بالوزن والقافية رجعيون عفا عليهم الزمن وأن الكتاب الذين يكتبون القصة والرواية، فيقصون ويروون حدثاً من الأحداث هم سرديون ينسجون على منوال الماضي، وأن الموسيقي الذي يضع لحناً راقياً هو فنان لا يريد مجاراة روح العصر والحقيقة أن هؤلاء قد جهلوا تماماً المعنى الذي تحمله كلمات مثل «تجديد، أو تحديث أو تطوير».. وهو الكامن في التجديد بالمعنى مضموناً وبالعبارة لفظاً، وليس التجديد في تحويل القصيدة إلى قصة .. والقصة إلى خاطرة .. والرواية إلى هلوسات تخلو من الحدث أو التأريخ الروائي المنشود. وفي هذه خطر كبير على الشباب وذائقتهم الفنية .. كما سيأتي الحديث عنه مفصلاً فيما بعد ..

-٣-

خطر التجريب على التذوق

التجريب سلاح ذو حدين، قد ينجح المجرب فيكون نجاحه فتحاً وريادة وسبقاً وإبداعاً، وقد يفشل فيكون فشله درساً ووسيلة إلى تجريب جديد ولا بأس في ذلك شرط الاعتراف بالفشل .. وعدم الإصرار على ترسيخه تحت غطاء التجديد وكفى، فيكون ذلك الترسيخ هدماً وتراجعاً وعبثاً لا طائل تحته، أما نظرية التجريب المفيد فهو تجريب البالغ العاقل المتمكن .. وأعني بالبلوغ هنا ..البلوغ الأدبي .. والمتمكن هو المتمكن من فنه الأصيل أو حرفته أو مجاله الذي يريد التجديد فيه، فلا يجوز لمبتدئ أن يجرب، ولا يجوز لفاشل في فن من الفنون أن يتنكب طريق التجريب لأنه في الحالة هذه سوف يفرز مسخاً من الشعر والأدب والرسم وغير ذلك.

والمجرب غير المتمكن من فنه ومن حرفته، ومن أدواته قد يكون ذكياً، وقد يكون شديد الذكاء فيدرك حاجة المتلقي إلى التغيير – أي تغيير – فيعزف له على ذلك النغم .. ويطرح نفسه على أنه المنقذ من الجمود، أن جاز إطلاق هذه الأسم عليها، ثم يحاول أن يجد لها مكاناً في السوق الاستهلاكي الثقافي، والذي جلّ كتابه من الشباب غير القادرين بعد على الحكم السليم أو التوجه الصائب، ثم يعثر هناك على ناقد ملّ من النقد الإيجابي الملتزم والمحرج، فيجد في هذا «المجدد العظيم» وسيلته إلى الهروب من ذلك الالتزام .. ويكون هذا الناقد ذكياً أيضاً، ويدرك بحاسة الذكاء لديه، أن المستقبل هو لهذا النوع من الفنون.. فيتبنى نهجه،

ويصفق له، ويعتبر إنتاجه فتحاً في عالم الفنون الحديثة .. ويعتبر صاحبها رائداً .. بل رمزاً من رموز التجديد والتحديث ..

ولما كانت الساحة الفنية غاصة بالعشرات من مثل هؤلاء وأولئك من غير القادرين على التعامل مع الفن الأصيل ودفع استحقاقاته، فإن الساحة سرعان ما تمتلئ بالفنانين والنقاد .. وأوعية الفن أيضاً: صحافة، إذاعة، تلفزيون، مسرح، وسرعان ما ينتشر هذا الفن إعلامياً ضمن تلك الأوعية المتشوقة إلى التجديد والتغيير، والمدركة أن المستقبل سيكون لهذه الموجة دون غيرها .. وسرعان ما تغدو تلك الأشكال الفنية ذات وجود مكثف على الساحة الإعلامية .. وتبدأ بإزاحة وهدم المباني الكلاسيكية الأصيلة من الساحة .. ويساعدها في ذلك بعض الانهزاميين من رموز تلك المباني ... على اعتبار أن المستقبل هو لهؤلاء و(أن انلوا ربعك عقلك ما بنفعك) ثم يبقى في الساحة مجموعة من أصحاب المبادئ القابضين على جمر الفن الأصيل .. والمعرضين للحرب الضروس التي تعلن عليهم من كل اتجاه.

أما دور الجمهور – المتلقي – فإنه قد يخدع بشعار البقاء للجديد، ولا للقوالب القديمة البالية التي أكل عليها الدهر وشرب .. ونعم للمجددين الذين يثورون الكلمة ويستشرفون آفاق المستقبل .. فتتشكل بين ظهراني ذلك الجمهور جماعة تتظاهر بقدرتها على مواكبة التجديد، وتتظاهر بثورة الوعي في أعماقها، حتى مكنتها هذه الثورة من التعامل مع الفنون الحديثة ورفض القديم البالي أو النظر إليه باستهزاء، ثم تبدأ بالدفاع عن الموجة الجديدة التي تكون قد اكتسحت السوق الاستهلاكي الفني إعلامياً، وأضع خطين تحت كلمة «إعلامياً»، لأن بقاء تلك الفئات التي تدعي التجديد ما كان له أن يترسخ وينمو ويعيش لولا الفزعة الإعلامية .. والمتمثلة بصحف

ومجلات وإذاعات وتلفزيونات، هي الأخرى تزايد في تبنيها للثورة الجديدة والدعوة لها وإهمال المألوف والتنكر له ..

أما التجديد كنظرية فإنه لا يقوم إلا على كواهل مبدعين نبتوا من التراث .. وتجذروا فيه، واتكأوا على الأصالة وأحاطوا بكل أسرارها واتقنوا فنهم الرفيع حتى برعوا فيه، ثم امتدت نظراتهم الإبداعية إلى مجالات أرحب، وأشكال أكثر رشاقة ورقيًّا ووعياً.. فيتقدمون نحو التجديد هيابين حذرين .. ثم يبدأون العمل على استحياء .. ويتقدمون إلى جماهيرهم متحسسين ردة الفعل الإيجابية لديهم، فيطرحون أمامهم الفن الجديد لا على شكل ثورة أو انقلاب أو رفض للسابق .. بل على شكل اكتشاف أبعاد جمالية رشيقة، وارتياد أبعاد شاسعة من الأحاسيس النافذة المؤثرة .. كما فعل أولئك الأجداد الأندلسيون الرائعون الذين خرجوا إلينا بشعر هو الموشحات الرشيقة المعروفة.

وهؤلاء الرواد الأفذاذ، إذ تمكنوا من التجديد، فأنهم لا يهدمون ما بناه سابقوهم، بل يضيفون إلى البناء عناصر جمالية جديدة.. عناصر لا تغير الهيكل، ولا تحول شبابيك ذلك البناء إلى أبواب .. ولا أبوابه إلى شبابيك .. ولا يجعلون النوم فيه تحت السرير، ولا الجلوس على مقاعده رأساً على عقب، أنهم يجعلون البناء الجديد أكثر جاذبية، وأزهى منظراً، وأرقى أثاثاً .. وأروع تنظيماً .. وأكثر راحة لساكنيه .. وهنا تعود بنا الذاكرة إلى ما كتبناه عن مفردات العصر ولكن المجرب أو المجدد في هذه الأيام يهدم ما بناه الآخرون، وليس من الضروري أن يكون للمسرحية هدفاً، أو للشعر معنى ووزناً وقافية، أو للوحة المرسومة بعداً جمالياً واضحاً.

إن خطر التجريب على التذوق يبدأ من هنا .. من هذه النقطـــة مــن هدم ما تقدم، وتسفيه ما سبق، تحت شعار تثوير الكلمة وإشعال الحرف، أو تجريد اللوحة من المعنى الواضح المفهوم، أو تحويـــل المــسرحية إلـــى حركات بهلوانية وألفاظ تتطاير في الهواء دونما هدف أو غاية، أن مشكلة التجديد عندنا أنها قد بدأت بالهدم .. بالرفض .. بالخروج عن النص بقلب المعايير رأساً على عقب، دون الخروج ولو بحالة واحـــدة يهـــرع إليهـــا الجمهور عن قناعة ... كما هرع جمهور المتذوقين للشعر إلى الموشحات فرددوها .. ولحنوها .. وغنوها .. حتى أصبحت على كل لسان ... دلوني على كلمات قصيدة وحتى لأكبر دعاة التجديد تتردد على ألسنة الناس، كما ترددت هذه الكلمات ووصلت إلينا عبر ألف عام أو تزيد ...

مغاني الشعب طيبا في المغاني   بمنزلة الربيــع مــن الزمــان
ملاعب جنة لـــو ســـار فيهـــا   سليمان لـــسار بترجمـــان ...
وألقى الشرق منها في ثيـــابي   دنـــانيراً تفـــرّ مـــن البنـــان
لها ثمـــرٌ تـــشير إليـــك منـــه   كأشربة وقفن بلى أواني ....

-٤-

التذوق في ميزان الفن

بداية يمكن القول بأن التذوق من نسيج الفـــن.. مـــن مادتـــه مـــن مصادره، من مشكاته .. والقاسم المشترك بينهما واضح وضوح الشمس، فلا فن بدون متذوق، ولا متذوق بدون فن أصيل، كلاهما يحتاج إلى الآخر، مكمل للأخر ... لا وجود له إلا بوجود الآخر. حتى أنه يمكـــن القـــول أن التذوق في ميزان الفن راجح .. أنه قد يشكل النصف وقد يزيد ..

فلولا هذه الخاصية القائمة على وعي وموهبة، لمـــا كانـــت هنـــاك إبداعات فنية، ولما كان هناك فنانون خالدون .. إذ لمن يكتب الكاتب؟ ولمن يغني المغني ويرسم الرسام؟ ولمن ينظم الشاعر عقد قصائده؟ صـــحيح أن الفنان يعبر بفنه عن فيض وجدانه، ودفق خواطره، وتفاعل الهامة، ولكنه لن يستمر طويلاً لو لم يجد من يشاركه الإحساس فيه، ولن يأتي بجديد لو غاب من يتذوق ذلك الفن .. ويعبر لصاحبه بطريقة عفوية عن إعجابه، أما بهز الرأس، أو التصفيق .. أو حتى بالإصغاء الحضاري الصامت، لو لـــم يجد الفنان من يتذوق فنه، لذبل كما تذبل زهرة نائية، ولـــسقم الهامـــة .. ونضب نبع عطائه .. ولمات فنياً كما يموت الغرباء بعيداً عن أوطانهم.

كنا ونحن صغار نسمع أن في مصر بعامة .. والقاهرة بخاصة نخبة من الناس يسمون «السمّيعة». وكان هؤلاء في الغالب يستمعون لأم كلثوم .. وكبار المطربين الذي اعتادوا أحياء حفلات سنوية في مناسبات معينـــة من السنة كفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ. وكان هؤلاء لا يغيبـــون عـــن موسم الغناء .. وحفلات «الست» بخاصة، وهو اللقب الذي كان يطلق على

أم كلثوم، كانوا يتسابقون للجلوس في المقاعد الأمامية .. فيصغون للست وهي تغني .. فيشاركونها الأهات .. وتهتز طرابيشهم طرباً عند تحليقها في آهة أو «كوبلية» فيرفدونها بالعطاء والقدرة على الإبداع .. وترفدهم هي بالطرب والسعادة، كانوا لا يغيبون عن حفلة من حفلاتها .. ومن لم يتمكن من الحضور لأسباب مادية، أو أسباب تتعلق بنفاذ التذاكر، فأنهم يسمعونها في مقهى من المقاهي التي تلتقط بمذياعها صوت الست وهو يبث على الهواء .. فارتبطوا بها، وعرفوا من خلالها.. حتى أصبحوا أنصاف نجوم ... تعرفهم الناس، وتشير إليهم بالبنان ويقولون: «هذا أو ذاك من السميعة»، وأنهم في اعتقادي يستحقون هذه الشهرة وهذا الثناء، أنهم الطرف الآخر من المعادلة (مطربة، وسميعة فلو ذهب أحد طرفي هذه المعادلة) على سبيل المثال فماذا سيبقى؟ لنتصور أم كلثوم وهي تغني لنفسها على المسرح، أو لنتصورها وهي تغني لجمهور غير متذوق ولا منصت، جمهور ينشغل عنها بالحديث أو بالتدخين أو تقشير اللب، فهل ستبدع أم كلثوم وزملاؤها من كتاب الأغاني والملحنين أغنية جديدة؟ وهل سيعود محمد القصبجي أو زكريا أحمد أو رياض السنباطي لوضع لحن جديد؟.

والجواب هو كلا بكل تأكيد .. وعليه فإن أولئك «السميعة» هم جزء من النسيج الفني للإبداع، ولا تستقيم معادلة ذلك الإبداع إلا بوجود طرفيه.

من هنا يبرز دور المتذوق في صناعة الفنون، في رفض الفنان بالرغبة والقدرة على الإبداع، في وزنه الحقيقي والواضح في كفة ميزان الفنون .. وفي دوره الخطير والأساسي في تحريك عناصر الإلهام في أعماق من أحب من الفنانيين، وكيف تستطيع موجة من الاستحسان أو التصفيق

على مسرح .. أو في قاعة محاضرات أن تفعل الكثير في وجدان مبدع، ثـم تدفعه إلى الوفاء لجمهوره بالمزيد من العطاء الإبـداعي اللامحـدود .. إن خاصية التذوق الفني لدى أي شعب من الشعوب هـي التـي تحـدد عـدد الفنانيين الحقيقيين الذين يفرزهم ذلك المجتمع، وهي التي تحدد أيضاً شـكل إبداعاتهم وقيمتها الفنية. من هنا لابد من الإشارة إلى ضرورة وجود طبقـة معينة من المتذوقين، والذين ينطلقون في تذوقهم عن وعي وقـدرة علـى الإحساس والتفاعل والتمييز بين الغث والسمين. هذه القدرة هي موهبة بحد ذاتها، وعلى سبيل المثال فهناك العديد العديد من النـاس .. مـن أصـحاب الشهادات العليا والمناصب الرفيعة ممن لم يتفرج في حياته على لوحـة .. ولم يقرأ كتاباً لا منهجياً .. ولا يحفظ عشرة أبيات من الشعر ... أو يستطيع أن يترنم بلحن لاسمهان أو عبدالوهاب .. أو تبهره صورة شعرية كهذه التي رسمها المتنبي وهو يصف مغاني الشعب في خراسان ويقول:

لها ثمـر تـشير إليـك منـه   كأشربة وقفـن بـلا أوانـي

في هذا البيت يشبه المتنبي الثمار في مغاني الشعب وكأنها شـراب وقف وحده دون إناء لشدة شفافيته وزهاء ألوانه .. إنك لو ألقيـت هـذا البيت من الشعر على مسامع من ذكرت، لظل وجهه جامـداً .. ونظراتـه بليدة .. ولو ألقيته على مسامع متذوق لـصرخ دون خجـل « الله .. الله عليك يا أبا الطيب» ثم تجتاح مشاعره موجة من الأحاسيس سـرعان مـا يبدو أثرها واضحاً على وجهه.

ومن هنا يمكن القول: أن المتذوق، شريك في العملية الإبداعية .. له دور كبير في ميزان الفن .. دور يتعداه إلى غيره .. إلى منابع الإلهام عند الفنان فيحرك آسنها، ويهز ساكنها، ويوقظ نائمها .. حتى تفـيض عبـر

ذلك الفنان عطاء إبداعياً متجدداً لا ينقطع .. أما لو ماتت تلك الذائقة – لا سمح الله – فماذا سوف يحدث! سوف تموت الحركة الفنيــة تبعــاً لــذلك وسوف تصبح الساحة خالية لنفر من مدعي الفن .. يفرزون وهماً اســمه الفن .. يسوقونه على جمهور فقد الذائقة، وهكذا تدور الدائرة وتموت أية موهبة جديدة، ويصاب المجتمع كله بالقحط الفني كظــاهرة مــن ظــواهر انحطاط المجتمع ووصوله إلى نقطة اللارجوع..

-٥-

خصائص المتذوق

المتذوق كما أسلفنا فنان إلى النصف أو يزيد، وقد يكون ما حال بينه وبين وصوله إلى عملية الخلق الإبداعي، عوامل خارجية لا شأن لها بتركيبته الداخلية أو موهبته الفنية الملازمة له منذ الصغر: قد تكون ظروف حياته المعاشية، أو انصرافه القسري إلى عمل بعيد عن الفن وفيه معاشه، أو سبب يتعلق بتحصيله العلمي اللاإرادي، قد يكون المتذوق إنسانا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف يمكن أن يصبح كاتباً بعد ذلك؟ .. صحيح أن بعض الكتاب العظام قد تربعوا على عرش الكتابة بشهادات ابتدائية أو دون الابتدائية كالعقاد مثلاً .. إلا أن هذه حالات نادرة .. والنادر لا حكم له .. أن التدني في التحصيل العلمي كما ذكرنا وممارسة عمل معاشي بعيد عن الهواية الموهبة .. يصل بصاحبه إلى موت تلك الموهبة ودفنها كموهبة إبداع وعطاء، ولكنها سرعان ما تتشكل لتظهر على شكل أحاسيس تتفاعل مع الإبداعات الفنية للأخرين فيظهر إلى الوجود متذوق يسهم في عملية الإبداع، ويكون جزءاً من مجموعة لها أثرها البعيد دون أن تدري أو تقصد – في إثراء الحركة الفنية، وتصحيح مسارها .. ورفدها بالنتاجات القيمة الراقية في شتى نواحي الإبداع ..

إذن فإن من أول خصائص المتذوق هي أن يكون بداية لمشروع فنان لم يكتمل لأسباب خارجة عن إرادته، ويبدو هذا واضحاً من ارتباطه المعنوي بكل ما هو داخل الإطار الفني، فنراه ينفعل ويتفاعل حينما يستمع إلى أغنية جميلة على سبيل المثال، ونراه يبحث عن الكلمة في كتاب أو في ديوان شعر إذا كان يعرف القراءة والكتابة، ثم نراه ونسمعه وهو

يرددها متذوقاً معانيها كما يتذوق أكلة شهية، ثم نراه يحب الحديث عنها والمشاركة برأيه فيها. وهو لذلك، أو بسبب ذلك نراه يسعى إلى حضور المجالس التي يطرق فيها ذكر الفن .. كالندوات والأمسيات الشعرية ومعارض الرسم حينما تتاح له الظروف ويسمح الوقت، ونراه كذلك يسعى إلى شراء واقتناء الكتاب الجيد أو استعارته .. ويدفع له ثمناً قبل أن يدفعه لشراء قميص أو حذاء ..

ومن خصائص المتذوق أيضاً عزوفه عن جمع المال أو اللهاث وراء المشاريع المادية الإنتاجية.. فهو لا يبيع لحظة من لحظات المتعة الفنية والإحساس الوجداني بأي ثمن .. وإنك لتستطيع أن تستدل عليه من خلال تعلقه بكل ما هو جميل ..

أعرف واحداً من هؤلاء، فكان غذا شغله أمر ما وانغمس بالحديث فيه .. ثم استمع صدفة إلى نغمة جميلة أو إلى بيت من الشعر ... فإنه سرعان ما يلتفت تلقائياً باسماعه ومشاعره إلى مصدر الصوت .. فكأنما تلك المساحة المعدة لاستقبال المعطيات الفنية .. مفتوحة دائماً على مصراعيها .. وجاهزة لالتقاط إية شيفرة جمالية .. وأما الأمور المادية البحتة فهي مما يسهل تأجيله أو الحديث فيه خلال وقت آخر .. أما لحظة الفن والإحساس بالجمال فلابد من اقتناصها، وهو كذلك حينما يكون في حالة استماع لنغم جميل .. أو مطالعة كتاب شيق .. أو تأمل للوحة بديعة .. ثم يأتيه أحدهم بخبر هام يريد إبلاغه له .. فإن حالة التأمل والاستماع والمطالعة تصغر عنده الخبر الجديد حتى ليكاد لا يعيره التفاتاً حتى يخرج من دائرة المتعة الفنية التي يكون مستغرقاً فيها .. ولكن تخيل .. لو كان ذلك الإنسان المتذوق للفن .. المرهف الإحساس مستخدماً لدى من لا ذوق

عنده ولا إحساس.. وصادف أن كان يستمع إلى نغمة، أو يقرأ قصيدة أو يتأمل لوحة .. ثم يشاهده صاحب العمل الحريص على الربح واستثمار كل دقيقة من زمن العمل عند مستخدميه .. ثم انتهره طالباً أن يسرع إلى عمله وأن يبتعد عن هذه المساخر التي يسمعها أو يقرأه وإلا فأن العقاب سيكون جزاءه ... والعقاب هنا الطرد وقطع الأرزاق ... وجوع له ومن يعيل .. فهل يستطيع أن يغلب الإحساس الفني على مجابهة الجوع والتشرد؟ .. والحقيقة أن صاحب العمل لا يدري أنه لو ترك ذلك المرهف الحسى لما يهوى.. كان يقرأ في كتاب، أو يستمع إلى لحن، ولو لفترة محدودة ... سوق يزيد من إنتاجيته ... وإقباله على العمل والتفاني فيه ... أضعافاً مضاعفة.

ومن خصائص المتذوق كذلك شفافيته، ونمط تعامله مع الآخرين .. وطريقة اختياره لأصدقائه ... أنه يختار أصدقاءه ممن هم على شاكلته من الإحساس بالجمال .. وممن يستهويهم الفن ويؤثر فيهم تلقيه .. ولذلك فهو قليل الأصدقاء .. واحد أو أثنين يكفي .. أما الآخرون فإنهم قلما يفهمونه ... وقد يسخرون منه لأنه في حالة من الشفافية التي تثير استغراب الآخرين .. أنه يبدو دائماً رقيقاً دمثاً مهذباً شديد الإحساس بما حوله ... فلا يطيق أن يرى طفلاً يبكي ويشعر في أعماقه أنه مسؤول عن إصلاح هذا العالم وعن كل دمعة تهطل من مآقي مظلوم أنه لا يطيق أن يرى الشر والعنف ولا منظر الدماء وهي تسيل .. وهو كذلك لا يطيق أن يرى ولدين يتشاجران .. هذا يضرب ذاك والشر يكبر .. أنه غالباً ما يقترب منهما يحاول الإصلاح رغم ما قد يواجهه من الخطر ... فقد يتعرض لضربة من

المتشاجرين أو لمسائلة قانونية عن أسباب تدخلـــه؟ أنـــه يـــستنكر كـــرب أسرة تصرفات أرباب الأسر الآخرين ممن يقسون على أولادهم وأســـرتهم دون مبرر .. ولذلك فهو غالباً رب أسرة ناجح ومحبوب من أبنائه وحتـــى من أبناء جيرانه .. وهو كذلك ورغم نجاحه تـــراه مقـــصراً فـــي الوفـــاء بالتزامات الأسرة المادية، لأنه في الأمور المالية ليس كما يجب .. يرضيه القليل .. ولا يستطيع مزاحمة الأقوياء القادرين على الكسب وتحقيق الثروة ... وحينما يعيره أحد بتقصيره عن فلان الذي نجح وحقق الثـــروة يقـــول صادقاً «مسكين ذلك الرجل .. متى يجد لديه وقتاً للاستمتاع إلـــى أغنيـــة جميلة أو قراءة كتاب ... أو حضور معرض فني لأحد الرسامين؟

ومن خصائص المتذوق أيضاً تعلقه الدائم بالجمال حيثما كـــان ذلـــك الجمال، فهو لا يكف عن اعتصار الدنيا حوله لاستخراج رحيـــق الجمـــال فتراه يسعى إلى الجمال حيثما كان .. له ذوق خاص في المـــرأة .. ولـــه ذوقه في ارتداء ملابسه .... وله طقوسه الخاصة في التعامل مع الأشـــياء حوله ... ومن هنا فإنه مفطور على الاستدارة نحو مصادر الجمـــال كمـــا يستدير عباد الشمس إلى الشمس .. وقد لا يكون يضمر في أعماقه شـــراً وهو يتأمل امرأة جميلة على سبيل المثال .. ولكنه قد رأى فـــي صـــورتها الجميلة لوحة فاستدار ليتأمل تلك اللوحة، انه يرى ان هذه الاستدارة فـــي قانونه وعرفه أمر مباح ويقول دائماً: أن الله جميل يحب الجمـــال ... وأن اللوحات الجمالية التي يرسما الخالق هي من أعظم اللوحات علـــى وجـــه الأرض .. ومن هنا فإنه يتعرض لكثير من حالات سوء الفهم .. فيتهمـــه بعضهم بأنه «حبيب» ويقـــول عنـــه آخـــرون بأنـــه ذو عـــين زائغـــة ..

وهم لا يدرون ان عينيه الاثنتين قد زاغتا رغما عنه نحو مصادر الجمـــال حيثما كان ذلك الجمال ..

ومن خصائص المتذوق كذلك ميله إلى الوحدة والتأمل فهو لا يتـــرك فرصة يستطيع من خلالها أن يخلو بنفسه إلا وانتهزها : فـــي غرفتـــه .. تحت الشجرة .. على ضفاف جدول .. أنه دائم التحديق في الوجود وكأنـــه يريد اكتشاف ما خفي من اسرار الوجود أنه كذلك يشعر بمتعة الوحدة أكثر وهو يستمع لأغنية جميلة. أنه غالباً ما يغمض عينه ثـــم يتخيـــل عالمـــا منسجما مع روعة اللحن في تلك الأغنية فيتضاعف إحساسه بهـــا مـــرات ومرات ..

هذا بعض من كل من خصائص المتذوق، ذلك الإنسان الفنان المكمل للمسيرة الفنية .. والمسؤول عن مسيرتها وعدم انحرافهـــا .. أنـــه أحـــد الطرفين الهامين المكونين لمعادلة الحق والخير والجمال ...

-٦-

الشباب بين فكي الفطرة والإعلام

كُلفت قبل سنوات بإعداد برنامج للتلفزيون تحت اسم «ألوان من الزمان» وتناولت في الحلقات العشر التي تضمنها البرنامج ألواناً من الموضوعات الفنية والثقافية والتربوية والرياضية، فطرقت أبواب الموسيقى والغناء والأدب والتعليم والفروسية، وقارنت بموضوعية بين هذه الموضوعات والفنون في الماضي والحاضر. وحينما أقول بموضوعية فهذا ينفي التحيز إلى هذا الزمن أو ذاك.. وينفي مقولة: من هو الأفضل القديم أم الحديث؟ بل من خلال طرح الأمور بموضوعية، وترك المقارنة والاستنتاج للمشاهد.. وكنت أترك الموضوع يتحدث عن نفسه من خلال استطلاعات ميدانية محايدة، كان فريق العمل في البرنامج يقوم بها. فنستمع بصراحة وتجرد إلى آراء من نتحدث إليهم، ونصّر على أن تكون الإجابة خالية تماماً من المجاملة أو التأثر برهبة الكاميرا: أو توجهات المعدّ أو المخرج. فكان ذلك البرنامج وثيقة صادقة وصريحة وواضحة يمكن الرجوع إليها إذا ما أردنا معرفة أي امر من الأمور عن تلك الموضوعات.

وفي إحدى حلقات البرنامج التي تتحدث عن الغناء، وألوانه عبر الزمان، قامت كاميرا البرنامج بزيارة لإحدى كليات المجتمع.. على اعتبار أن الكلية هي الوسيط بين المدرسة والجامعة .. وبدأ مقدم البرنامج، الحوار مع عدد من الطلاب والطالبات ممن يرغبون في الحديث، وممن لا تزيد أعمارهم على العشرين عاماً. وكان مقدم البرنامج يبادر بتقديم السؤال التالي أو بما معناه: ماذا تسمع من الغناء؟ القديم أم الحديث؟ فماذا كانت الأجوبة؟ كانت الأجوبة مفاجئة حقاً .. وغير متوقعة تماماً بالنسبة لي

ولفريق البرنامج، فقد اجمعوا تقريباً أنهم يسمعون أم كلثوم وعبـدالوهاب وفريد وعبدالحليم واسمهان.. واذكر أن تلك الحلقة قد تضمنت سؤالاً كـان يطرح للمشاهدين في نهاية الحلقة عـن اسـمهان عـن الاسـم الحقيـق لاسمهان، وحينما وصلت الأجوبة إلى البرنامج كانت معظمها صـحيحة .. مما يدل على معرفة فنية ومتابعة لا بأس بها عن رموز الغناء الذي يطلق عليه مجازاً اسم القديم ونعود إلى تلك الحلقة .. وإلى أولئك الشباب الـذين فاجأونا بتحيزهم إلى القديم من الغناء .. فكانت هناك حيرة أين الحاضـر؟ وكيف سنقدم هذه الحلقة عن برنامج يحمل اسم «ألوان من الزمان» ويتخذ من الحياد منهجاً فبحثنا عما يحدث التوازن بين طرفي المعادلة عن طالـب أو طالبة يميل إلى الحديث دون القديم .. علماً بأن الساحة الفنيـة كانـت تغص آنذاك بأسماء مطربين جدد كثر .. تحيط بهـم الدعايـة الإعلاميـة والبهارج الفنية من كل اتجاه .. وتتردد أغانيهم فـي حفـلات الأعـراس ومسارح الرقص .. ولكن الشباب ظلوا مصرين انهـم أرادوا أن يـسمعوا ويطربوا فإنهم يتوجهون باتجاه آخر .. إلى ذلك الزمان الـذي شـدا فيـه أولئك العمالقة، وعبر ظروف صعبة ما كانت متاحة لهم كما أتيحت لمطربي هذه الأيام .. كان الواحد منهم يغني بصوته، لا بقدميه ورقصاته ، ولنا إلى هذه عودة فيما بعد ..

المهم .. لقد لاحظ أحد الشباب حيرتنا .. وعرف عن رغبتنا بالعثور على من نقابله ممن يرفضون القديم .. ويطربون للحديث .. فتقـدم منـا منقذاً وهو يقول قبل التصوير: «أنا أحب القديم مثل باقي أصحاب ولكننـي سأقول أنني مع الحديث من أجلكم .. وقال وتم تسجيل الحلقة».

لقد أسهبت في سرد تلك الواقعة لأصل إلى نتيجة مفادها أن الشباب مفطورون على تذوق الفن الأصيل. فطرة خلقت معهم وعاشت لا حيلة لهم بوجودها .. إذن فما الذي يحدث؟ .. ولماذا مالت الكفة لصالح الحديث؟ .. وتوارى القديم حتى أصبح يعّد من مخلفاتالماضي؟ .. أين ذهبت الفطرة السليمة؟ .. وأين توارى التذوق الصحيح؟ ولماذا نرى شباب هذه الأيام يتدافعون نحو السطحي والتافه من هذه الفنون؟ والجواب هو الإعلام. نعم إنه الإعلام الذي – وللأسف – قد ظل يدق على مسامع الشباب الشباب وعقولهم وقلوبهم حتى فتحت. يقول المثل «خذ من التل يختل».. ويقول أيضاً «من طرق الباب سمع الجواب» وهذا ما حدث .. فقد تبنى الإعلام – وللأسف أيضاً– نهج الجديد، وركب الموجة الجديدة .. وتنازع على رغبات الشباب مع فطرتهم السليمة .. حتى أضحى الشباب بين فكي كماشة .. أحد طرفيها الإعلام والطرف الآخر هو الفطرة .. ولكن الإعلام بوسائله وأساليبه .. وإكسسواراته ومقبلاته كان هو الأقوى .. فاستجاب الشباب للموجة الحديثة .. وأسهم التعتيم كلياً أو جزئياً على القديم في نسيانه .. فخلت الساحة من الفن الأصيل إلا ما ندر .. أما لماذا يفعل الإعلام ذلك .. فإن ذلك يعود – في اعتقادي – إلى أسباب ثلاثة وهي:

١– رغبة الإعلام في أن لا يكون مقصراً في مجاراة التطور المجتمعي لكل معطيات العصر. فكل شيء يتغير حوله ويتبدل على مستوى المنطقة العربية وعلى مستوى العالم، فقد اجتاحت العالم كله موجات حادة من التغير ولابد للإعلام أن يجاري هذه الموجات .. وإلا سبقه القطار .. وتخلف هو قاعداً يندب حظه .. وهو كذلك لا يريد أن يكون رجعياً متخلفاً عن العصر..

هكذا خيل إلي .. فانبرى يسابق الأمواج بوعي أو من غير وعــي .. كي يبقى في صورة العصر ومتطلباته .. فكان هناك سباق محمــوم نحــو التباري والتباهي بالتجديد ومواكبة روح العصر .. وهو –أي الإعــلام– لا يدري أنه يندفع بالأجيال نحو شفير الهاوية.

٢– الإعلام يرى أن العالم يتطور، وان هذا العالم يسير إلى الأمام ولا يمكن أن يعود إلى الخلف. ولا مكان فيه للقاعدين أو المتطلعين إلى الوراء. أو النادبين على الأطلال. فمالهم وللأطلال التــي درســت؟ .. ومــا لهــم ولبكائيات فريد الآطرش وآهات أم كلثوم؟ وهل يستطيع هــذا العــصر أن يترك لكائن من كان كي يجلس إلى جوار المذياع ساعات يتلــذذ بالآهــات الحارقة؟ ... كلا فالمستقبل للجديد .. للوجبة السريعة .. للــ «ساندويتش» في الطعام والفن والحب أيضاً. هذه موجة يجب ركوبها .. وأصبح شعارهم المثل الذي يقول «إذا انجنوا ربعك عقلك ما ينفعك» إذن ليذهب العقل إلــى غير رجعة .. وليذهب الوعي والحب والرومانسية إلى الجحيم .. فما أنا إلا من غزية أن غوت. غويت وإن يرشد الناس أرشد. حتى اكتسحت الموجة كل ما في طريقها، ومضت بالشباب عبر دهاليز لها أول وليس لها آخــر. وأصبح التباري هو في الكم لا في الكيف. وأضحى الــصخب هــو الــسمة الغالبة لتلك الموجة. فالأغاني صاخبة راقصة والموســيقى قــرع طبــول، والشعر طلاسم. والرواية خاطرة والقصة قصيدة .. وهكذا.

٣– أما ثالث تلك الأسباب فهو توجه الإعلام إلى مقولة: أن القــديم ذهب ولكل زمان دولة ورجال، وأن ما يناسب الشباب فــي الأربعينــات أو الخمسينات من القرن الماضي ما عاد يناسبهم في مطلع القرن الجديــد .. والألفية الثالثة. وان ستين عاماً هي مدة كافية لكي تفصل بين ذوق وذوق.

فمن غير المعقول أن يظل الشباب اسارى حقبة زمنية مضت وانقضت. كما أن الشباب في هذه الأيام –كما ادعى الإعلام– ليسوا من سميعة الإذاعة .. أو الأغاني المسجلة على «فيديو كاسيت» وان معظم التراث الغنائي القديم غير مسجل على اشرطة تلفزيونية، ولا يمكن إذاعته إلاّ من الإذاعة، التي ما عادت قادرة على منافسة المحطات الأرضية، والفضائية والتلفزيونية بأي شكل من الأشكال. وعليه فإن فرصة أولئك الذين ذهبوا للظهور على تلك الشاشات ومنافسة مطربي العصر المدعمين بالرقصات والإكسسوارات والفيديو كليب هي فرصة يائسة .. بل لا وجود لها .. إذن «هاردلك».

والنتيجة التي أريد الوصول إليها هنا هو أن الفطرة السليمة لدى الشباب موجودة .. بل هي مخلوقة في وجدان صاحبها منذ طفولته .. ولكن هذه الفطرة اعتدى عليها .. وحوصرت، وذوبّت بأبشع أساليب التذويب لأسباب غير مقتعة على الإطلاق. مع ذوبان الفطرة تشكلت ذائقة هجينة.. تم تشكيلها عمداً أو غباءً.. وراحت هذه الذائقة تتوجه إلى الموجات التي تعزف على أنغام أحط الغرائز .. فاختلط الغناء بالرقص والعري والإيماءات المكشوفة.. وذهبت مقولة الصوت القوي الجميل إلى غير رجعة .. وأصبح الإبداع نادراً .. وإن وجد فلا يسعى إليه أحد.

وأصبح المطرب الملتزم بقضية الغناء غريباً أو شبه غريب. إذن فالذائقة عند الشباب قد دمرت عمداً أو غباءً. وجرثومة التحديث قد وصلت إلى الدم وعصفت بأمل الشفاء .. وهنا يكمن الخطر كل الخطر.

-٧-

الشباب وأزمة الغناء والموسيقى

الغناء من الفنون الراقية.. بل أنه مصنف في مقدمة هذه الفنـــون .. ويحفل تاريخنا العربي بأسماء مغنيين كإسحاق الموصلي وزرياب.

والغناء كذلك خارج من عباءة الشعر العربي، والذي هو ديوان العرب. ولم تغب هذه الحقيقة عن أذهان الكتاب والمفكرين والفلاسفة العرب. ففـــي مقدمة ابن خلدون فصل كامل اسمه في صناعة الغناء يقول في بعض فقراته (هذه الصناعة، هي تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نـــسب منتظمة معروفة. يوقع على كل صوت منها توقيعاً[١] عند قطعة فتكون نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة. فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب. وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات. نـــصف صـــوت وربعاً آخر، وخمساً آخر، وجزءاً من أحد عشر من آخـــر، واخـــتلاف هـــذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب. وليس كـــل تركيب منها ملذوذاً عند السماع. بل تراكيب خاصة هي التي حـــصرها أهـــل علم الموسيقا. وتكلموا عنها كما هو مذكور في موضعه، وقد يساوق[٢] ذلـــك التلحين في النغمات الغنائية، بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات. إما بالقرع أو بالنفخ في آلات تتخذ لـــذلك .. فيزيـــدها لـــذة عنـــد الـــسماع. فمنهـــا لهذا العهد بالمغرب أصناف: منها ما يسمونه الشبابة[٣]وهي قصبة جوفـــاء بأبخـــاش[٤] فـــي جوانبهـــا معـــدودة. ويـــنفخ فيهـــا فتـــصوت، ويخـــرج

(١) يستعمل ابن خلدون التوقيع في الموسيقا. والصواب «الإيقاع».

(٢) المساوقة: المتابعة.

(٣) الشبابة: نوع من المزمار مولدة.

(٤) يراد بالأبخاش: الثقوب. ولا توجد مادة «بخش» في كتب اللغة لعلها مولدة.

الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه، وتتصل كذلك متناسبة، فيلتذّ السماع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه .. إلخ» انتهى الاقتباس من ابن خلدون».

وقد أوردت تلك الفقرة من ابن خلدون عن الغناء والموسيقى لإبراز الفلاسفة ووضعت عنه أمهات الكتب مثل كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني .. والمطبوع والمحقق مرات عديدة وفي أجزاء كثيرة .. والأصفهاني مؤلف الكتاب ليس من العامة .. ولا من المتحذلقين المتطفلين على العلم والكتابة .. ولكنه عربي أصيل يعود نسبه غلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. فهو أبوالفرج على بن الحسين بن محمد بن احمد بن الهيثم بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالله بن مروان بن محمد .. والمولود في أصفهان سنة ٢٨٤ هـ .. أي انه بعيد عنا في الزمان اكثر من ألف ومائة عام .. ولولا أهمية الغناء وعلاقته بالشعر نظماً .. وبأدوات العزف لحناً لما اهتم بهذا الأمر .. ولما أفرد له هذا المجلد الضخم.

وبعد تأكيد أهمية الغناء والاعتراف بدوره في وجدان سامعيه .. فإنه لابد من الاعتراف بتأثيره على الشباب والأجيال التي يمثلها أولئك الشباب. ولابد من الاعتراف أيضاً أنه ينبغي أن لا يترك هذا الأمر على عواهنه فيوغل فيه كل من هب ودب دون معرفة وعلم وتدبر.. أنها مسألة تربوية تتعلق بالوعي وتؤثر على الأذواق سلباً أو إيجاباً. ولكن المشكلة التي نعيشها مع هذا الواقع وأزمنة الانفلات من دائرة الوعي .. قد جعلتنا ننظر إلى هذا الأمر نظرة سطحية .. ونتعامل معها على استحياء .. ونتركها

لمعادلة ساذجة سهلة .. ليغني من يريد الغناء .. وليستمع إليه من يريد الاستماع .. ونترك السوق الغنائي هو الذي يحسم هذه المسألة.

والحقيقة هي غير ذلك .. لأن المسألة تتعالق بالذوق العام وتؤثر أكثر ما تؤثر على الشباب وأمل الأمة كما أسلفت في المقدمة.. لأن من تجاوز مرحلة الشباب فلا خوف عليه من أي تأثر أو تأثير طارئ .. فذوقه العام قد تشكل، ودائرة وعيه قد اكتملت .. ولكن الخوف كل الخوف هو على الشباب .. الذين ما زالوا في طور تشكيل الوعي .. وما زالت كاميرات وجدانهم اللاقطة تسجل دون انقطاع وتتأثر بما تسجل .. فلو تركنا الحبل على الغارب وصفقنا لكل من أراد أن يتنكب طريق الغناء والموسيقى .. واعتمدنا على مقولة الحرية للإنسان في أن يغني ما يشاء، ويستمع إليه من يشاء، فإن هناك خطراً كبيراً على الذوق .. وإذا ما اختل معيار الذوق فإن أموراً أخرى كثيرة سوف تختل من خلال خطرين كبيرين على الشباب: الخطر الأول يتمثل في مستوى الفن الغنائي المطلوب .. والمطلوب هو ما يريده الجمهور .. والجمهور «عايز كده» كما يقول بعض منتجي الأفلام المصرية .. وفي هذه الحالة فإن أغلبية المطربين والملحنين سوف يتهافتون على إفراز هذا الفن الرخيص المتناسق مع ذوق رخيص .. وسوف يصبح هذا النمط هو القاعدة وما غيره هو الاستثناء .. وسوف نجد القلة المبدعة تتوارى خلف مبادئها ورسالتها الفنية التي لا تعود تطعم خبزاً آنذاك وسوف يغدو المطرب أو الملحن الملتزم المبدع أمام مفترق ذي ثلاث شعب: إما أن يستمر في أداء رسالته محاصراً جائعاً غريباً.. وإما أن يعتزل المهنة .. وإما أن يركب الموجة .. وهي كما ترى شعب خطيرة تؤدي في النهاية إلى الخواء الفني الذي هو مؤشر من مؤشرات الخواء الحضاري لأي شعب من الشعوب ..

أما الخطر الثاني على الشباب فإنه يتمثل في قتل الذائقة الفنية عندهم .. وامتداد هذا القتل إلى المكونات الإنسانية داخل الشباب .. فيغدو الشاب تافهاً في كل خيار يختاره .. فهو لن يستطيع أن يعمق رؤيته نحو أي أمر من الأمور .. فتغدو رؤيته صفراً .. وإدراكه لأموره الخاصة صفراً .. وتعامله مع مكونات وجوده تعاملاً سطحياً ساذجاً لا يفضي إلا إلى المزيد من الخراب والخواء الفكري الخطير .. والسبب أن الذائقة الإنسانية هي وحدة متكاملة .. فإذا اختلت في أحد مواقعهافإنها سرعان ما تختل في مواقع أخرى .. فينعكس العطب الذي يصيب الذوق عند قطاع من الشباب في مجال الغناء على سبيل المثال على ذوقه في القراءة والمشاهدة والرسم وربما في اختياره لأصدقائه أيضاً.

إن الحفاظ على الذائقة الفنية هو أمر في غاية الأهمية .. وقد اهتم القائمون على هذا الأمر اهتماماً فطرياً بههذ المسألة ولما كان موضوع حديثنا في هذا الجانب عن الغناء والموسيقى فلابد من مراجعة بعض الأمثلة المتعلقة بهذا الأمر .. ومنذ الشيخ سيد درويش في أوائل القرن العشرين .. وحتى بعيد منتصفه بقليل .. وبالتحديد منذ سنة ١٩١٠م – ١٩٦٠م .. حينما نهض ذلك الفنان الملهم وقبض على اعنة الغناء والموسيقى في مصر – بوالمناسبة سوف يتم اختيار مصر كنموذج في كثير من فصول هذا البحث .. وذلك لما لها من سبق وتأثير على «مجمل التطورات الفنيةوالأدبية في العالم العربي» وإعادة الذائقة العربية إلى المكانة التي تستحقها، فأبدع فناً راقياً رائداً رغم عمره القصير الذي لم يتجاوز الثلاثين .. فتتلمذ على يديه وعلى منهجه في العمل عمالقة الفن العربي والموسيقى والغناء في القرن العشرين .. ممن قدر لهم أن يشاهدوه أو يتحدثوا إليه، وممن جاءوا

بعد رحيله.. وبعد أن وضع اللبنة الصلبة في قاعدة الذوق الفني .. والذي سار عليه الفنانون والأنماط الفنية بعد ذلك أكثر من نصف قرن ..

وفي الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين لم تكن كلمة «مطرب أو ملحن رخيصة .. ولم يكن يستطيع الحصول عليها إلا من كان يستحقها عن جدارة واستحقاق. وكان على من أراد أن يسير في تلك الطريق أن يجتاز اختبارات لا حصر لها كي يتمكن من إجازة أغنية أو لحن من الإذاعة المصرية التي بدأ عملها سنة ١٩٣٤م.. ولم تكن هناك عبارة «أنا حرّ أريد أن أصبح مطرباً ولا أحد أحسن من أحد» .. كما يحدث في هذه الأيام .. فكل شاب وجد في نفسه الوسامة .. وامتلك بعض المال فإنه سرعان ما يغدو مطرباً .. يغني على المسارح ويرقص .. ويحمل لقب أستاذ وتجرى معه المقابلات .. ويرد على مكالمات المعجبين المتلهفين بتواضع مصطنع: «أنا أشكر جمهوري الحبيب .. وأريده أن ينتظر ألبومي الجديد قريباً».. والألبوم هو شريط يحوي أغنيات كثيرة .. ما كان للمطرب في أيام زمان أن ينتجها في سنوات عديدة.

المغني هذه الأيام يرقص ويدبك ويتحدث إلى الجمهور وهو يغني .. يالها من مواهب كثيرة ما كان يتمتع بها محمد عبدالوهاب .. ولا فريد الأطرش ولا عبدالحليم .. ولا حتى أم كلثوم .. التي كانت تنفث انفعالاتها أثناء الغناء بمنديل حريري تحمله في يدها. ويالها من مواهب جعلت الجمهور يرقص بدل أن يسمع .. ويغني مع المطرب بدل أن يستمتع بغنائه ..

في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي كانت كلمة مطرب نادرة وعزيزة ولا يمكن الوصول إليها بسهولة .. فإذا ما وصلها مطرب

وحملها .. واستمع إلى أغانيه من الإذاعة فإنها شهادة لا تعادلها شــهادة دكتوراه .. ومركز لا يرقى إليه مركز اجتماعي مهما سما .. ففي تلك الفترة ولأكثر من خمسين عاماً لم يكن في الصف الأول إلا ثلاثة مــن العمالقــة .. وصلوا إلى القمة .. وتربعوا عليها .. وأقــاموا فيهــا بجهــدهم وإبــداعهم وعطائهم الفني المتواصل .. وفي الصف الذي يليهم كانت مجموعة أخرى لا تزيد على أصابع اليد .. وكان في الساحة مطربة احتلت المركــز الأول دون منازع .. ولشدة رسوخها في ذلك المركز .. فقد شغر المركز الثــاني ولــم تستطع أي من المطربات أن تشغله رغم عطائهن الغنائي المتميــز والــذي وصل ببعضهن إلى مرتبة النجومية. كان هناك إطار حضاري يــأوي إليــه المنشغلون بالموسيقى والغناء فيعرف كل واحد منهم قدر نفسه وقدر غيــره .. كان هناك شباب اختاروا التلحين طريقاً ولم يقتربوا مــن الغنــاء رغــم قدرتهم عليه .. وكان هناك مطرب شاب اختار الغنــاء دون التلحــين رغــم قدرته عليه فوصل به الغناء إلى الصف الأول بين مطربي عصره.

كان هناك ذوق عام .. وكان هناك جيل تلتــه أجيــال مــن الــشباب سحرتها النغمة الصادقة .. حزينة كانت أم فرحــة .. وتفاعلــت مــع الآه النابعة من أعماق الوجدان .. وشدت إلى الصوت الدافئ الحنــون ســواء أكان لمطرب أو لمطربة كانت هناك مدارس غنائية واضحة المعالم وصــت بأصحابها إلى العالمية ..وعليه فإن هذا الجيل من الشباب قد تشكل لديــه ذائقة فنية لم تقتصر على مجال الموسيقى والغناء بل تعدتها إلى التــذوق في كل مجال من مجالات العلم والأدب والشعر والرسم والمسرح.

وما أن جوبه هذا الجيل بالموجات الجديدة التي ما قمات على أســس فنية سليمة حتى رفــضها .. وحــاول أن يتــصدى لهــا، ولكنهــا كانــت

كالعاصفة التي أتت في طريقها على كل شيء. فاقتلعت شجيرات الفن من جذورها .. وعصفت بأية ذائقة تشكلت خلال حقبة من الزمن .. ولم يستطع أصحاب تلك الذائقة أن يتصدوا الموجات ما يسمى بالجديد الذي يستثير وحش الغريزة، ويطرب بسيف الجمهور الذي هو «عاوز كدة» حتى أضحى الأمر خطيراً .. فأما المزيد من التصدي والصمود والصبر .. وأما موت الذائقة لدى الشباب إلى غير رجعة. فأين ذهب الفن الغنائي والموسيقى؟ .. ولماذا ذهب؟ ومسؤولية من؟ وما هو الحل .. فإن الحديث عن هذا كله سيأتي فيما بعد.

-٨-

الشباب وأزمة التفوق الأدبي

أ- الشّعْر

الشعر ديوان العرب. والديوان يجمع بين الناس ليتعارفوا ويتآلفوا .. والشعر هو الزاد الثقافي الذي لا ينضب .. والوجبة الحسية التي لا تنسى .. الشعر هو الركيزة التي لا تنسى .. الشعر هو الركيزة التي يقوم عليها التذوق الجمالي للكلمة من حيث الشكل والوقع والمضمون. والشعر إلى ذلك هو رصيد الأمة، ودرة تراثها وعنوان مجدها وخلودها. والشاعر في قبيلته هو الناطق الإعلامي بأسمها، والمؤرخ لأمجادها.. والشاعر في أمته هو مفجر الجمال والوعي والأحاسيس في وجدان أبنائها،، وهو كذلك ليس لأمتنا العربي وحدها .. ولكنه لجميع الأمم .. فإذا أخذنا بريطانيا العظمى على سبيل المثال .. والتي كانت الشمس لا تغيب عن مستعمراتها .. فبماذا تفخر اليوم؟ هل تفخر بمستعمراتها السابقة كالهند ذات المليار من الناس .. أم تفخر بانتصاراتها في الحربين الأولى والثانةي؟ .. أنها تفخر ولا ريب بكل هذا ولكن فخرها الذي لا يتلاشى ولا يزول هو بشاعرها العظيم وليم شكسبير.. والذي مر على موته أربعة قرون ولا زال علماً من أعلام بريطانيا. ومصدر فخر وفخار لها إذا افتخرت الأمم بحضارتها.

هذا الشعر إذن له دوره وله مكانته.. وله وزنه .. وله حضوره .. في وجدان الناس مهما كان قديماً .. ومهما بعد شاعره وراء القرون .. هذا الشعر هو لمسة : لجمال الروح ، وقطرة المطر للأرض المشتاقة إلى الماء والتي أضناها العطش، وهو خفقة الخاطر الجميل إذا اكفهر ليل المتاعب والمصاعب والمصائب.

وكما ذكرنا في باب الغناء والموسيقى .. فإن الشباب هم أصحاب الكلمة في تحديد مكانة الشعر وتذوقه .. وهم وحدهم حفظته ونقل التأثر والتأثير فيه إلى غيرهم .. وذلك لأن الجيل أو الأجيال السابقة لهم قد حفظ الشعر .. وأحبه .. وقد مكانته .. واعترف بدوره وتذوقه تذوقاً جمالياً رائعاً. وتعامل معه بالحكمة إذا كان شاعره حكيماً.. وبالتذوق الجمالي إذا كان صاحبه مرهفاً .. وبالمدح والرثاء إذا كان صاحبه مادحاً أو راثياً .. لقد أصبح الشعر في أعماق الجيل السابق لجيل الشباب مؤثراً في كل شيء .. فإذا قست الحياة فإن رجلاً طاعناً في السن ونصف متعلم يقرأ على مسامعك بيت الشعر التالي لأبي البقاء الرندي:

هي الأمور كما شاهدتها   من سره زمن ساءته

وإذا ما قصر أحدهم بحق معلمه في المدرسة من حيث واجب الاحترام أو سماع النصيحة فإنه يذكره بأهمية المعلم شعراً أو يقول له:

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

وإذا ما أراد أحدهم أن يحث غيره على المطالعة ذكرّه ببيت شعرٍ للمتنبي.

وخير مكان في الذرى سرج   وخير جليس في الزمان

وإذا ما عاد محب إلى حبيبته بعد طول فراق لأسباب طارئه – فإنه سرعان ما يذكر ببيت شعر لنزار ويقول:

– رجعت ما أحلى الرجوع إليه ... يعني إليها.

وهكذا يتشكل الشعر في أعماقنا قيمة حضارية متميزة .. حتى يصبح جزءاً من خطابنا اللغوي اليومي. وهذا الشعر الذي نتعلمه على شكل أشعار مبسطة وأناشيد في صفوفنا الابتدائية الأولى.. هذا الشعر الذي حفظناه زاد مخزوننا من المعرفة اللغوية وازدادت مساحة معارفنا .. وتهذبت ألفاظنا وسمّت أذواقنا ومن شدة حبنا لهذا الذي يسمونه شعراً نحفظه ونحن صغار .. ثم نتبارى فيه بين بعضنا .. فيذكر أحدنا بيتاً من الشعر .. ويطلب من منافسه أن يذكر بيتاً آخر يبدأ بنفس الحرف الذي انتهى به البيت الأول وهكذا .. فتصور كم سيكون مخزون من يُريد الفوز في هذه المباراة .. ولا يقف الأمر عند هذا الحد .. بل يتعداه إلى محاولة كتابة أبيات من الشعر قد تكون ساذجة في البداية .. ولكن صاحبها إذا ما امتلك الموهبة .. فإنه سرعان ما يدخل إلى خيمة الشعراء ويعد واحداً منهم.

ديوان العرب هذا قد تعرض خلال الثلاثين عاماً الماضية إلى عاصفة غريبة .. هبّت عليه وعصفت بأركانه .. الوزن والقافية والصور الشعرية المتقدمة. هبّت رياح أطلق عليها رياح التجديد والتجريب والتحديث .. فتجاوزت بحور الفراهيدي .. وعبثت بالشكل الشعري .. وخربّت المعاني والمضامين ثم حولتها إلى طلاسم لا شكل لها ولا لون ولا رائحة .. ويعزو بعضهم هذا التحول أو مصادر هذه العاصفة إلى أشعار الغرب التي حاول بعضهم ترجمتها حرفياً.. فأصبحت مسخاً غريباً لا هي بالشعر ولا بالنثر غابت عنها المعاني والصور الشعرية .. وتجردت من الواقع الموسيقي والقافية .. ونسي أولئك المترجمون أن لاشعر لا يترجم إلا شعراً وعلى يدي شاعر متمكن .. وهو رغم ذلك لا يستطيع أن يحقق أكثر من ٥٠% من القيمة الحقيقة للقصيدة .. فكيف إذا كانت القصيدة مترجمة ترجمة حرفية

.. فماذا يتبقى منها؟! ومن هذه الترجمات التي لا يتبقى منها شيء نبعث – في اعتقادي– فكرة الشعر الذي يسمى حديثاً .. وصيغت القصيدة التي يقال عنها أحياناً قصيدة الحداثة أو القصيدة النثرية .. والتي لا هي بالشعر ولا بالنثر أيضاً.

ومن هنا بدأ التحول .. ومن هنا أقيم الجدار بين الشباب وهم متلقوا الشعر ومتذوقوه وحاملوه إلى الأجيال التي تأتي بعدهم وبين الشعر نفسه .. وقد جاء توقيت هذه الموجة الجديدة في زمن خطير، في وقت تكاثرت فيه المغريات على الشباب وأصبح الشباب أقل رغبة في أي فن لا يصل إليهم بسرعة .. ولا يفهمونه كما يهضمون رغيفاً من «الساندويش» مع كأس من العصير .. جاء هذا الذي يسمونه شعراً ليطلق رصاصة الرحمة على ما تبقى من ذائقة وقابلية لدى الشباب في التعامل مع النص الأدبي الشعري، فكانت الغربة .. وأصبح الشاعر الحديث يدور مع نفسه، ومع كوكبة من النقاد في إطار صحف ومجلات ترى في التجديد حاجة مجردة بحد ذاتها.. أي التجديد وكفى أما كيف جاء ذلك التجديد ؟! وكيف تشكل؟! وما هي أهدافه ومضامينه؟! وما هو تأثيره على جيل الشباب وأذواقهم؟! فإن هذا الأمر لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد.

المهم أن تكون هذه المجلة أو هذه الصحيفة مجددة .. وأنها تتعامل مع الأسماء الكبيرة من رافعي لواء التجديد .. وعلى الجمهور المتلقي القارئ .. المتذوق .. أن يفهم رغم أنفه .. عليه أن يفهم وإلا اتهم بالجهل والتخلف .. عليه أن يفهم وإلا فإنه رجعي كلاسيكي عدو للتطور والتميز .. وبعضهم يتظاهر بالفهم لهذه القصيدة أو تلك خوفاً من اتهامه بالتخلف .. وهكذا سارت الأمور .. الصحف التقدمية تتبنى هذا النهج حتى أضحى من

ينظم الشعر على طريقة وبحور الفراهيدي غريباً مرفوضاً وأفردت الساحة كلها لشعراء لا علاقة لهم بالقارئ العادي .. بل هم يكتبون للنقاد وينظرون إلى حمل لقب مجدد .. وليذهب إلى الجحيم أولئك الشباب الذين هم عملاء الشاعر وزبائنه .. إن فهموا فهموا.. وإن لم يفهموا فتلك مشكلتهم عليهم أن يحلوها بأنفسهم إذا ما أرادوا اللحاق بركب التطور والتقدم .. والشعراء لا يعلمون ولا يدركون أنهم يحققون مجداً آنياً زائلاً .. سوف يزول بزوالهم .. ولا يدركون أيضاً أنهم يرتكبون خطيئة بحق الأجيال التـــي تعاصـــرهم وتأتي بعد عصرهم لأنهم كانوا السبب الأول والأخير في دفعهم عن ديـــوان العرب .. وفي طردهم عن مواقع العظمة والكبرياء فيه.

لقد قدر لي أن أحضر أمسية شعرية لشاعر من قطر عربي شقيق له وزنه ومكانته في بلاده .. فتلا على الحاضرين نماذج مـــن شـــعره وكلـــه حديث .. حاولت أن أتلمس خيطاً من خيوط الوعي في ذلـــك الـــشعر فلـــم أتمكن .. ربما كان ذلك لعيب فيّ أنا.. وقد لاحظت أن الجمهـــور يـــصغي محاولاً الفهم مثلي مجاملة للضيف وانسجاماً مع أجواء الشعر التي تضفيها علينا تلك الأمسية. كان الشاعر يحظى بين الحين والآخر ببعض التـــصفيق الناجم عن المجاملة أولاً وأسلوب الإلقاء ثانياً. وحينما وصل إلـــى نهايـــة أمسيته، وأوشك عريف الحفل أن يختتم الأمسية قلت للشاعر الضيف:

– أليس لديك بعضاً من شعرك العمودي تسمعنا إياه إذا سمحت؟

حاول الشاعر الاعتذار .. وأعلن أنه لا يحمل معه أشعاراً مـــن شـــعره العمودي الذي يكتبه في بعض الأحيان .. ولكنه يحفظ بعض أبيات مما كتـــب، طلبت منه أن يتلوا على مسامعنا بعض تلك الأبيات التي يحفظها ففعل ..

وما أن قرأ عدة أبيات حتى ضجت القاعة بالتــصفيق استحــساناً .. وكان التصفيق يتكرر بعد كل بيت .. وما أن انتهى حتى هرع إليه الجمهور يهنئه على تلك الأمسية الجميلة .. والتي لولا أبيات الشعر العمودي فيهــا لما نال ذلك الاستحسان، أو لناله مجاملة ليس إلاّ ...

وباختصار فإن ركوب الشعراء لموجة الحداثة الــشعرية دون وعــي وتجربة .. قد أسهمت وسوف تسهم .. في تخريب الذائقة الأدبية الشعرية عند الشباب .. وعلينا أن نتصور جيلاً كاملاً قد عزف عن الشعر .. فمــاذا سيفعل الجيل الذي يليه؟ وهل سيعترف بأن الشعر مــا زال هــو الــديوان للعرب؟!!.

-٩-

الشباب وأزمة التذوق الأدبي

ب-القصة والرواية

القصة من الفعل «قص» والرواية من الفعل «روى» وعليه فإن الرواة .. أو القصاصون .. والذين يعرفون بالمصطلحات الأدبية باسمي: الروائي والقاص .. هؤلاء ينبغي أن يقصوا شيئاً على قرائهم .. بمعنى أن يتحدثوا إليه بحكاية ما .. وينبغي أن تكون هذه الحكايات مشوقة كي تجد من يستمع إليها .. وان تكون طريفة كي يستمتع من يقرأها. وإن تكون متضمنة لحدث كي يعتبر من يطالعها، وأن تكون مفيدة وحاملة لمضمون إنساني من نوع ما كي يستفيد من يطلع عليها.. وان تكون متقنة ومصاغة بعبارات أدبية راقية، كي يستلهم الجمال من يبحر بين سطورها. فالقصة إذن هي حكاية ذات بداية ووسط ونهاية تحمل بين طياتها حكاية مشوقة أو مثيرة، ذات مضمون إنساني هادف .. تصاغ بعبارات أدبية منتقاة وشكل جميل.

والرواية مثلها .. وهي الوجه الآخر للقصة .. إلا أنها ذات مدى أكثر اتساعاً ورؤية أكثر واقعية، ورؤية تنسحب على التاريخ والجغرافيا، وتؤرخ لحقبة زمنية زاخرة بالأحداث .. فالرواية كما اعرفها واعرفها هي تاريخ اجتماعي قصصي لمرحلة من المراحل.. في مكان من الأمكنة .. تأريخ يحدق في جزيئات المرحلة وأحداثها وتحولاتها ومخاضاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، على أن تكون تلك المرحلة المراد التاريخ لها روائياً فاعلة مؤثرة .. وواقعة على خاصرة أحداث دراماتيكية لها قوة الانقلاب في تأثيرها على مجمل الحياة الواقعية وجذورها وذيولها، والكاتب الروائي يؤرخ لتلك المرحلة من خلال نواة تتكون من خيط قصصي وهمي

مناسب لحركة الأحداث حوله .. والمقصود بوهمي أن لا يكون واقعياً بأشخاصه وأمكنته وأسماء المشاركين فيه .. أي أن لا تكون الحكاية داخل الرواية حكاية حدثت بالفعل .. بل حكاية حدثت بالفعل .. بل حكاية وضعت كي تناسب مسار الأحداث وظروف المرحلة. فعلى سبيل المثال لو أخذنا ثلاثية نجيب محفوظ الروائية بين القصرين، وقصر الشوق والسكرية .. لرأينا أن عائلة أحمد عبدالجواد «سي السيد» لا وجود لها بأسمائها وأشخاصها وحركة الأحداث داخلها .. ولكنها وضعت لتعبر عن تلك المرحلة، وتنسجم مع منطق الأحداث فيها، وهذا هو الخيط القصصي المطلوب منه أن يكون عصياً على الانقطاع عند أي منعطف زمني أو تاريخي.

هذه هي الرواية، واقترابها من القصة القصيرة، من حيث الاهتمام بالحدث والمضمون والتشويق.. إلا أن لكل فن فيها خصوصيته وأغراضه التي يخدمها من خلال النص الأدبي.

وبعد هذا التعريف المتواضع للقصة والرواية نعبر إلى أزمة التذوق التي يواجهها الشباب في التعامل مع هذين الفنيين الأدبيين الراقيين، ولماذا بني جدار من الغربة بين جيل الشباب، وبين الكتب المتضمنة لمجموعة قصصية ... أو رواية؟! إذ من الغريب، بل من المستهجن أن تحدث هذه الغربة .. لو ظلت القصة على حالها .. وظلت الرواية في مسارها .. إذ من هو الذي يستطيع أن يزيح جانباً ذلك الكتاب المتضمن لعدد من القصص القصيرة؟ والتي تتضمن كل قصة منها لوحةمصورة بالقلم لحالة إنسانية مكثفة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يرفض كتاباً يروي فيه صاحبه تاريخ من مرحلةمفعمة بالعبارات الجميلة والصور الراقية.. والتأريخ الاجتماعي الجذاب؟ .. والجواب هو أنه لا يوجد، ولن يوجد ذلك الذي يرضي بديلاً عن

خير جليس .. فكيف إذا كان لك الجليس يحمل بين صفحاته صوراً من واقعه معالجة بطريقة إبداعية، ومكتوبة بعبارات رشيقة ومؤثرة؟..

ودليل ذلك أننا في أيام الشباب، كنا نسعى إلى الكتاب الذي يضم بين طياته مجموعة قصصية أو رواية.. فنقرأ ونستمتع ثم نتحدث بما قرأن إلى الأصدقاء .. حتى ممكن لم تكن لديهم ملكة التذوق .. نحاول أن نحدث عندهم هذه الملكة كي يحدث التواصل بيننا وبينهم .. وكنا – لندرة الكتب آنذاك– نعيد قراءة بعض الكتب مرات ومرات .. واذكر أنني قد قرأت رواية الكاتب الفرنسي «ألفونس كار» مترجمة بقلم مصطفى لطفي المنفلوطي والتي تحمل اسم «مجدولين» أو «تحت ظلال الزيزفون» أكثر من عشر مرات.

وكنت في كل مرة أجد فيها متعة ما بعدها متعة .. فلماذا تحدث هذ الأزمة بين الشباب وبين هذا الفن الأدبي الرفيع؟.. وهل كانت مبادرة القطيعة من القراء أم من الكتاب أنفسهم؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من الاعتراف أن للقراء من الشباب دور في هذه القطيعة .. دور هم ليسوا مسؤولين عن وجوده لقد أوجده الزمن .. ظروف العصر .. تغير شكل الحياة وتزايد مغرياتها حولهم .. ومن هنا فقد وقع الشباب بين فكي كماشة .. ماضٍ يمثله الآباء والأجداد بكل قيمهم وعاداتهم وارتباطاتهم مع الكتاب والمطالعة .. وتذوقهم للنصوص الرومانسية المختارة .. وحاضر يدفع بهم بعيداً عن تلك القيم ... إلى واقع جديد في ملابسهم وطعامهم ومواعيد نومهم ويقظتهم .. ووسائل متعتهم ومرحهم .. أنه صراع قد دار في أعماقهم .. وفي الغالب فإن النصر سيكون للجديد .. للمتغير .. للصرعة القادمة من الغرب .. تلك الصرعة التي اجتاحت حتى شباب الاتحاد السوفياتي المغلق على الغرب .. لدرجة أنّ

بنطلونا من الجينز «المهرب أو المستورد» - فيما بعد من الولايات المتحدة كان يباع بعشرات أضعاف ثمن البنطلون العادي .. حتى اضحى حلـم كـل شاب وشابة هناك ...

فإذا كانت تلك الموجة قد اجتاحت الشباب الروسي المحصنين بالستار الحديدي .. والمشبعين بالإيدلوجية الاشتراكية المناهضة للغرب .. فما بالك بشبابنا الذين يعيشون في مجتمعات مفتوحة .. كل شيء فيها مستورد من الخارج سواء بمادته أو تصاميمه؟..

لابد أن يحدث التأثير إذن .. وتنتصر الموجة القادمة من الغرب ومن الشرق معاً .. تلك الموجة التي لم تقتصر على اللباس وحده .. بل تعدتـه إلى نمط تناول وجبة الطعام .. وطريقة التسكع في الشوارع، حتى اللـسان الذي أصبح يردد المفردات الأجنبية – الإنجليزية تحديداً أكثر من العربية .. وامتدت أمواجه كذلك إلى مسامع الجيل فعبثت باهتماماته في مجال السمع والمشاهدة والقراءة .. فهو – أي شباب هـذا العـصر – مـشدود إلـى «الستالايت» وجهاز الخلوي .. والسيارات الحديثة .. والمسابقات والجوائز والمهرجانات التي لم تعد تقع تحت حصر .. كل هذه العوامل .. وغيرهـا كثير .. قد فرضت وجودها على وجدان الشباب في هذا الجيل .. فـضعف انتماؤهم إلى الأباء والأجداد .. بل باتوا في أعماقهم يرثون لأولئك الأبـاء والأجداد .. كيف أنهم ما زالوا على علاتهم كما قال عرار حـين اتهمـوه بالتمدشق:

قالوا تدمشق قولوا مـا يـزال علاته إربدي اللون حـوراني

ولما كان الأمر كذلك فقد تراجع اهتمام الشباب بالكتاب .. وأخص هنا ذلك الكتاب الذي يعني بالقصة والرواية .. وظلت العلاقة قائمة على شكل مدّ وجزر بين القراء من الشباب وبعض الكتب التي تتحدث عن مواضيع مثيرة .. أو فضائح .. أو سياسة ساخنة .. أو كتب دينية تتحدث عن أهوال يوم القيامة وعذاب القبر .. أو تلك الكتب التي تتحدث عن الأبراج التي تحدد الحظ وأيام السعد .. أو تلك التي تتحدث عن مواضيع جنسية مباشرة تحت غطاء من العملية .. أو ستار من «لا حياء في الدين» علماً بأن الحياء كل الحياء في الدين ..

هذا التراجع .. أو هذه الغربة بين الشباب وكتب المطالعة في مجالي الفن القصصي أو الروائي .. قد وضع الكتاب أمام مسؤولياتهم وفرض عليهم أن يتعاملوا مع المرحلة الجديدة .. بمفردات جديدة وصور جديدة تكون جاذبة للقارئ لا طاردة له.. لأن القارئ -ومن جيل الشباب بخاصة- هو الرصيد الأول والأخير لأي كاتب.. فعلى الكاتب أن يتلمس حاجاته .. ويكتب له ما ينفعه ويفهمه ويتذوقه .. وأن يسعى إلى إرضاء حاجاته إلى الأدب والمعرفة .. ولكن ليس على طريق «الجمهو عايز كده» بل من خلال معادلة غاية في الصعوبة .. ومسؤولية لا يستطيع أن يصدع بها إلا الكاتب الحقيقي الملهم .. فمسؤولية الكاتب قد تضاعفت وربما عشرات المرات .. ففي أيام زمان .. كان الأديب يكتب لقارئ صافي الذهن .. نقي الإحساس .. لا تتنازعه عوامل الجذب والطرد ..

كان القارئ آنذاك كالأرض العطشى المتلهفة إلى المطر .. فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت .. وانبتت من كل زوج بهيج .. أما الأرض الجديدة التي يراد لها الري من قبل الكاتب .. فهي أرض قد تنازعتها عوامل

التعرية .. وفتكت بتربتها الحشرات .. ولم يعد الماء وحده كافياً لكـي تنبت النباتات .. بل لابد لها من التجريف والتسميد وغسيل التربة من الأمـلاح .. وهذا جهد كبير ومضاعف مراراً على المزارع والذي هو الكاتب في المثل الذي ضربناه ...

ترى .. هل صدع الكاتب وأعني كتّاب القصة والرواية بما تمليه عليهم المرحلة الجديدة؟ .. وهل أعدوا أقلامهم وأوراقهم ووعيهم لاستيعاب متطلبات المرحلة الجديدة؟ .. وهل كانوا على قدر أهل العزم لكي تأتي إليهم العزائم ..

والجواب هو أننا إذا استثنينا قلة قليلة من الكتاب .. فإن الغالبية العظمى لم تستجب لمتطلبات المرحلة .. بل زادت على ذلك بأن قفزت فوقها وجلست في برج عاجي تطل من خلاله على القراء .. فبدأ القراء من بعيد أسراباً كأسراب النمل .. ووجد أولئك الجالسون في ابراجهم العاجية أن على تلك الأسراب من النمل .. أن تقترب منهم .. ثم تصعد سلم تلك الأبراج .. ثم تحاول التقاط ما يجود به عليهم الأسياد .. ليتهم ظلوا على حالهم ... ليتهم ظلوا يكتبون كما كتب المنفلوطي ومحمود تيمور وميخائيل نعيمة.. لقد أرادوا هم أيضاً أن يسهموا في حركة التطور والتجديد .. وقالوا: أن التطور والتجديد ليس مقصوراً على جمهور القراء وحدهم .. فلا أحد أحسن من أحد .. أن على أولئك الذين واكبوا التطور فحملوا «الخلوي» .. وتفرجوا على «الساتالايت» .. وتناولوا وجبات «الهمبورغر والكنتاكي» ولبسوا الأساور في أيديهم، أو السناسل في أعناقهم .. والشورتات في شوارعهم .. أن على هؤلاء أن يعلموا أن التطور ليس حكراً عليهم .. فكتاب الشعر والقصة والرواية أيضاً يستطيعون أن يفعلوا ذلك .. ويستطيعون أن يواكبوا حركة

التطور .. فيقلدوا هذه المدرسة الأدبية في الشرق .. وتلـك فـي الغـرب ورابعة في أميركا اللاتينية .. ويستطيعون كذلك أن يكونوا صنوناً لكفاكـا وماركيز، وأن يجربوا مسرح العبث .. وشكراً لكتـب وقـصص العبـث، والبيركامو أيضاً ..

وأخيراً فعلوا ذلك .. واغتربوا عن قرائهم مدعمين بأسلحة إعلاميـة هائلة تطبل لهم وتزمر .. وتنشر إنتـاجهم .. وتكتـب عـنهم الدراسـات المبشرة برواد مبدعين .. ولكن لو سألت جمهورهم من القراء لما عرفـوا غير أسمائهم .. وربما مسيرة حياتهم التي ترافق بعض كتـبهم .. حتـى وصل الأمر ببعضهم إلى التباهي بالاغتراب والغموض والطلاسـمية إلـى القول بأنه هو نفسه لا يفهم ما يكتب .. وعلى الآخـرين أن يفهمـوا وإلا فأنهم ليسوا بالمستوى الذي يكتب هو فيه .. أنه يكتب للنخبة للـصفوة .. للنقاد الذين يشهرون أقلامهم لمدحه .. لأنهم لو مدحوا شاعراً كلاسيكياً أو كاتباً قصصياً «تيموريا»(*) فإن تهمة الرجعية سوف تطـالهم دون إبطـاء، وسوف تخبو أقلامهم حتى يتوبوا ويعودوا إلى جـادة الـصواب فيواكبـوا حركة النقد ومدارسه الحديثة هنا وهناك..

ومن مظاهر التغريب في القصة والرواية أنك تقرأ القصة فلا تجد بداية ولا نهاية .. بل خواطر مغلقة متصارعة عبر مـساحة ضـيقة محـدودة .. ومتقاطعة مع الوعي برغم ذلك فما أن يحاول القارئ أن يقبض على المعنـى أويتبين عتمة الطريق .. حتى يفرّ منه المعنى .. وتتكاثف العتمة على الطريق .. فيدخل القارئ في القصة ثـم يخـرج منهـا دون أن يعلـق فـي ذهنـه

* نسبة إلى محمد تيمور ١٩٨٢-١٩٢١م، من مؤسسي الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ويعتبر مـن رواد القصة القصيرة الواقعية في العالم العربي، ومن أشهر مجموعاته القصصية «ما تراه العيون».

شيء .. وكيف تعلق في الذهن تلك الهلوسات المرضية الخالية من عناصر القصة الأساسية النابعة من الفعل «قصّ» والمتضمنة لحكاية هادفة ذات بداية ووسط ونهاية، فماذا يفعل القارئ آنذاك؟

والقارئ ليس قارئ الأربعينات الذي يعود من عمله أو من مدرسته فلا يجد له وسيلة للتسلية إلا الراديو وإلا فإنه قاعد جالس محدث في الأشياء حوله .. وقادر على الغوص في المعاني واستلهام الصور .. ولكنه قارئ اليوم الذي لا يدري حينما يعود من عمله ماذا يفعل؟..

* هل يذهب لزيارة صديق؟
* أم يذهب لحضور أمسية أو ندوة سياسية؟
* أم يجلس ليتسلى على الساتالايت؟..
* أم يحمل أطفاله إلى مدينة الملاهي؟
* أم يركب سيارته ويخرج للجلوس في حديقة عامة؟.
* أم يذهب للتفرج على السيرك أو المشاركة في افتتاح معرض كتب؟..

أنه قارئ مشغول إلى شوشته .. لا وقت فراغ عنده .. الساعات والأيام عنده تجري مسرعة .. فهل نطلب من هذا القارئ .. والذي قد يكون مطلوباً منه أن يلهث مع آلاف اللاهثين وراء لقمة العيش .. هل نطلب منه أن يجلس ويتأمل ويحلل المعاني التي قصدها هذا الكاتب القصصي أو الروائي والجالس في برجه العاجي ساخراً منه؟..

والجواب هو كلا بكل تأكيد .. سوف يلقي بالكتاب جانباً .. ثم تحدث الفجوة بينه وبين الكتاب الجيد أيضاً .. ثم تترسخ حالة مستديمة .. وهي حالة الاغتراب عن القراءة والتي لا يبقى منها أمامه إلا توافه الكتب ..

فيهرع إليها ليقرأ في الحظ والتداوي بالأعشاب .. وتفسير الأحلام .. وغير ذلك .. إلى أن يفسد الذوق العام للشباب .. ثم تنتقل هــذه العــدوى إلــى الأجيال .. فيخرب الذوق وتبور الصنعة الثقافية ويكون الخواء الحــضاري هو النتيجة المحتومة ...

-١٠-

الشباب وأزمة التذوق الأدبي

النصوص المسرحية

لا بأس أن نتحدث بداية عن أهمية المسرح، ودوره الكبير في تشكيل الذائقة الفنيةللشباب من جمهوره، أما أولئك الذين تجاوزوا سن الشباب، فقد تشكلت أذواقهم أدبياً وفنياً ومسرحياً وانتهى الأمر .. ويبقى الشباب هم المشكلة .. وهم الأصل .. وهم الجذور لأجيال قادمة .. وهنا قد يسأل سائل إذا كان جيل العشرينات إلى الخمسينات من القرن الماضي .. قد تشكلت أذواقهم على نحو أفضل .. وسمت لديهم الذائقة الفنية الموسيقية الغنائية حتى سمعوا أم كلثوم وعبدالوهاب، وسمت الذائقة الأدبية حتى تعلقوا بالعقاد ونجيب محفوظ والرافعي.. وسمت لديهم الذائقة الشعرية حتى أمروّا على شعرائهم أحمد شوقي. وقدروا حافظ ومطران والجواهري حق قدرهم. فلماذا لا نطمئن إذن على الأجيال التي أتت من بعدهم؟ .. ما دمات الأجيال تؤثر فيما بعد وتسهم في صناعة الذوق عندها، مع تعديل طفيف يناسب روح العصر وإيقاع الزمان ..

والجواب هوأن تلك الأجيال التي نتحدث عنها قد واجهت عاصفة هوجاء من التغيير عصفت بكل ما هو قديم .. بل سفّهت كل ما هو قديم .. ووضعت لنفسها قواعد جديدة راحت تنطلق منها لتسيطر على أذواق الشباب .. وتدمر ما قبلهم .. فلو سأل الواحد منا أباه على سبيل المثال ..

* هل كان هناك تغير إلى حدّ الصراع بينه وبين أبيه؟

* وهل أخبره أبوه أنه كان هناك تغير إلى حد الصراع بينه وبين جده؟

لكان الجواب هو لا بكل تأكيد .. فآباؤنا .. وأجدادنا .. وربمـا إلـى سلسلة طويلة من الآباء والأجداد، كـان التغيـر فـي أجيـالهم بطيئـاً .. ومتناغماً ومقبولاً .. أما جيلنا .. فقد كان التغير فيه عاصفاً مدمراً .. لشدة الموجات التي هبت .. وأحدثت تغيراً على مستوى العام الواحد إن لم نقـل على مستوى الشهر، فأجهزة الكمبيوتر المستعملة هذه الأيام تتطور تطوراً يكاد يكون شهرياً أو أسبوعياً .. وهناط طرفة مفادها أن صديقاً قـد سـأل صديقه: لماذا لا تذهب هذا اليوم وتشتري جهاز كمبيـوتر؟ فيـرد عليـه الصديق: سأذهب الأسبوع القادم: لأن الأجهزة ستكون أحدث .. هذه صورة من صور التغير المتصاعد الذي لا تستطيع قوة أن تقف في سبيله .. وقـد انعكس هذا التطور التكنولوجي على حياة الشباب وأنماط سلوكهم وأذواقهم وطرائق معاشهم .. ولن تستطيع أية قوة أن تقف في وجه هذا التطور، لا لكي تمنع حدوثه .. بل تنظيم حدوثه بطريقة من الطـرق .. لتجعـل ذلـك التطور منطقياً أخلاقياً قابلاً للهضم والاستيعاب..

ونعود إلى المسرح .. وتأثيره على أذواق الشباب .. لنؤكـد حقيقـة باتت من البديهيات .. وهي أن المسرح أبو الفنون .. وربما عمها وخالها أيضاً، فلو أخذنا الدراما الإذاعية على سبيل المثال لوجدنا أن المسرح هـو الأب الشرعي لها.. فمن هناك بدأت واستمدت وجودها، فكانـت الإذاعـة، تقوم بنقل المسرحية عن خشبة المسرح إلى المستمعين، والمذيع يرشدهم إلى الصورة المسرحية بمعنى أن المذيع كان يغطي الفترة التي تعتمد فيها المسرحية على الحركة أو الإيماءة.. ويمهد للصوت شارحاً كل ما تقع عليه عيناه، من شكل خشبة المسرح، وألـوان الملابـس والـديكورات وحتـى الانفعالات المرسومة على وجوه الممثلين..

هذا هو المسرح .. ذلك الفن القديم قدم الزمان والمكان .. وقديم قدم التاريخ أيضاً .. فهناك مدونة مسرحية دينية مصرية كتبت عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، موضوعها «موت الإله أوزوريس وبعثه» وقد استعمل المسرح اليوناني الذي بلغ أوج مجده في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، أساطير قديمة ومجموعة منشدين كورس، تعلق على الموضوع، وتقوم بحركات تمثيلية مأثورة..

وكان المسرح مفتوحاً في الهواء الطلق .. والمقاعد في صفوف افقية ممتدة على جوانب التلال كما هو الحال في الأستاد الحديث هذه الأيام..

وهناك المسرحيات الهندوسية الأوروستقراطية، والمسرحيات الصينية الشعبية التي ترجع تواريخها إلى عصر الإمبراطور منج هوانج سنة ٧٠٠م، وهناك المسرح الياباني .. وصولاً إلى مسرح شكسبير الإنجليزي في مآسيه الشهيرة، أو هنريك ابسن النرويجي ومسرحيته الشهيرة «بيت الدمية» .. أو توفيق الحكيم المصري ومسرحية أهل الكهف التي كتبها سنة ١٩٣٣م..

هذا هو المسرح بقدمه وعراقته .. ودوره في صناعة الفنون وتبنيها. هذا المسرح الذي كان قائماً على رواية .. على فكره .. على قصة ممسرحة .. على أحداث تنمو وتتصاعد إلى الذورة .. على قصة مؤثرة تمسك بتلابيب الحضور ، وتجعلهم مشدودين إلى خشبة المسرح مترقبين المشهد التالي على أحرّ من الجمر .. هذا هو المسرح الذي يتحرك فيه الممثلون على خشبته وهم من لحم ودم .. لا من صور تحركها الطاقة الكهربائية كما هو الحال في السينما والتلفزيون .. ولا من صوت

يـــــــسبح فـــــــي الأثيـــــــر كمـــــــا هــــــو الحال في الإذاعة .. أنه حالة إنسانية حية .. تمثل واقعــاً مــا .. تتحــرك أمامك وتنفعل لتؤدي دورها المرسوم بعناية .. هذا المسرح الذي بدأ قبــل آلاف السنين .. والمدونةالمسرحية الدينية المصرية قبل أربعة آلاف ســنة شاهدة على ذلك .. ذلك الفن الذي تحدى الزمن .. وما زال صــامداً رغــم الفنون الشقيقةالبديلة المدعمة بالتكنولوجيا والإمكانات الهائلة .. هذا الفن أليس له تأثير على ذائقة الــشباب؟! .. وإلــى أي مــسرح تــذهب بهــم أقدامهم.؟.. هل يذهبون إلى المسرح الجاد الملتزم القائم علــى روايــة أو نص لكاتب عظيم كشكسبير أو توفيق الحكيم؟. أم يذهبون إلــى مــسرحية هادفه .. ذات دلالات وأبعاد اجتماعية وسياسية لا تقع تحت حصر كمسرح دريد لحام ومحمد الماغوط على سبيل المثال .. أم يذهبون إلــى مــسرح الفكاهة المطلقة .. لا هدف لها إلا الإضحاك .. وأنا أعتقــد أن الإضــحاك هدف في حد ذاته بين الترويح عن النفس مطلوب، والقلوب إذا كلت عميت .. ولكن شريطة أن لا يتحول ذلك الإضحاك إلى أسفاف وتهريج وخــروج عن قواعد الذوق والأخلاق السليمة ..

والسؤال هو ..

* هل تركوا ذلك الفن العظيم وشأنه؟ ..

* وهل نجا ذلك الفن العظيم من عواصف التحديث والتخريب؟..

* وهل تركت للشباب مساحة يتحركون بها عبر ذائقة نقية لم تشبها شائبة؟

- والجواب هو لا بكل تأكيد .. فقد خرج علينا الغرب فــي نمــط مــن المسرحيات أسماها «مسرحية العبث» ولما كان لكل شيء من اسمه نصيب ..

فإن مسرح العبث هو عبث في حد ذاته .. لا فكرة .. لا قصة .. لا مـــضمون .. إنما هي حركات إيقاعية وإيماءات تعتمد على الممثل والممثلة أو كليهما .. لا على النص .. فأصبح المسرح يعتمد على جملة هذه الحركات الدينكوشوتية غير المفهومة .. وإلا فما معنى أن تنتظر ساعات ونحن نترقب جودو .. فـــي المسرحية الشهيرة «في انتظار جودو»..

وبعد ذلك فإن جودو لا يأتي .. وهناك المسرحيات التي تقــوم علـــى الرمز المجرد .. كما تقوم بعض القصص القصيرة والروايات .. فتدخل إلى المسرح، وتخرج منه وأنت لم تشاهد سوى أجساد تتحرك وتشبّر .. وترفع أيديها إلى أعلى .. ثم تدور في المسرح.. وقد تتلوى على أرضه وتخاطب أرواحاً لا ترى بالعين المجردة .. وتتدفق الكلمات الموغلة في الطلاســمية أيضاً لتصل إلى إسماعك دون أن تعرف ماذا يريد الممثل وكاتب النص أن يقولا .. ولكن هل هناك كاتب نص حقاً .. وقبل أن يجلس كاتب النص إلى أوراقه وأقلامه .. ماذا تراه كان يريد أن يقول؟ لا أحد يعــرف .. تــدخل وتخرج وأنت لا تعرف .. رغم الإمكانات الهائلة المتوفرة للمسرح .. ورغم الكلفة العالية للملابس والديكورات .. ورغم الجهد العظــيم الــذي يبذلــه الممثل في تلك الحركات حتى لتعجب .. كيف يستطيع هذا الممثل أو هــذه الممثلة أن يقوما بههذ الحركات العنيفة كل يوم؟ .. وبلا طائل؟..

إن غياب المسرح .. ذي القصة القائمة على الواقع .. المستمدة من إبداع كاتب أو روايته ..المكتوب بلغة عربية مبسطة .. أو بلغــة النـــاس المحكية .. يشكل ظاهرة خطيرة .. تدفع بالشباب إلى واحد من طريقين:

- الطريق الأول: هو هجر المسرح إلى غير رجعة .. وطيّ صــفحته كما طويت في وجدانهم صفحات الشعر والقصة القصيرة والرواية..

– والطريق الثاني: هو أ، تتشكل في أعماقهم مفاهيم خاطئة عن طبيعة هذا الفن العظيم .. فيصبح الاستثناء هو القاعدة .. والقاعدة هي الاستثناء .. فيتشكل ذوق جديد مغاير للواقع ومتقاطع معه ..حتى يغيب ذلك الواقع عملياً .. ويصبح العبث هو المدرسة الجديدة التي إليها تشد الرحال .. كما هو الحال مع الأغنية التي غابت فيها الذائقة السليمة .. وتشكل نوع من الذوق الراقص .. حتى اصبح عنده الرقص هو محور الأغنية .. أما الكلمة واللحن والصوت فلا مكان لها في دائرة الاهتمام..

أن أزمة الذائقة الفنية عند الشباب في مجال المسرح هي أزمة حقيقية .. ولكنني أرى أنها مختلفة عن تلك التي تشكلت في مجال الغناء .. لأنه في هذا المجال قد ترسخ الذوق الجديد .. وطغى على سابقه حتى أوشك أن يمحوه .. أما في مجال المسرح .. فإن الذوق الجديد سوف يعصف باللونين معاً .. حتى ينقرض المسرح ولا يعود له وجود ..

-١١-

الشباب وأزمة التذوق الفني

-فن الرسم-

قد يقول قائل ما جدوى الرسم واللوحات في زمن الكاميرات اليابانية الدقيقة، ووسائل التصوير الحديثة، وتقنيات علم التصوير التي تستطيع أن تصور الأمكنة البعيدة والبحار والنجوم والكواكب؟!.. وقد يقول أيضاً ما جدوى أن يجهد رسام نفسه فيجلس الساعات الطوال إمام مشهد طبيعي أو كائن بشري أو حالة إنسانية.. ولأيام أو شهور أو سنين لكي يخرج علينا بلوحةمن اللوحات؟! .. ربما كان هذا ضرورياً في أيام ليوناردوا دافنشي ١٤٥٢-١٥١١ .. ذلك المصور النحات المعماري الموسيقي المهندس العالم الإيطالي .. الذي أنفق سنوات طويلة في رسم «الموناليزا» .. أو «العشاء الأخير» فلم تكن هناك كاميرات لاقطة .. ولا تكنولوجيا تصوير حديثة .. وربما كان ذلك ضرورياً أيضاً في عصر رفائيل الذي عاصره ١٤٨٣-١٥٢٠م ورسم لوحته الشهيرة «العذراء» .. «ومدرسة أثنيا» .. فلم تكن هناك كاميرات في عصر العذراء ولا في عصر أثينا .. تصور تلك الحالات النادرة التي يحتاج الناس هذه الأيام إلى تخيلها .. والوصول إلى منابع الإبداع في وجودها .. ترى لو كانت هناك كاميرات في ذلك الزمان .. ولنفترض أنها كاميرات في مستوى ما لدينا هذه الأيام .. فهل ستكون لنا حاجة إلى رفائيل أو ليوناردو؟ .. هذا هو السؤال موضوع هذه الفقرة ..

والجواب هو نعم بكل تأكيد .. سنكون في حاجة إلى هؤلاء .. كما نحن في حاجة إليهم اليوم .. لأن الكاميرات اللاقطة المتطورة هذه الأيام تلتقط صورة .. ولكنها لا تعكس حالة وجدانية داخلية .. لو كانت الكاميرات

العصرية المتطورة تستطيع أن تحل المشكلة، ما احتفظ متحف اللوفر في باريس بلوحة «موناليز» التي رسمت قبل خمسة قرون.. ولما وصل ثمنها إلى مئات الملايين من الدنانير ... إنك تستطيع أن تلتقط عشرات من الصور مثلها بأرخص الأثمان، وتستطيع أن تأتي بفتيات أكثر جمالاً .. وأشدَّ حزناً من موناليزا .. ولكن هل تستطيع الكاميرات أن تتغلغل إلى أعماق موناليزا فترسم ذلك الحزن الباسم على وجهها؟ .. الفنان إنسان .. والكاميرا جماد .. الفنان يملك الإحساس ويستطيع التعبير عنه .. بينما الكاميرا تلتقط ما تراه على السطح .. الفنان .. أمٍّ تستطيع أن تعرف ما يدور في أعماق ولدها .. أنها وحدها التي تستطيع أن تعرف. أما الكاميرا فإنها مربية تتعامل مع الطفل بشكل آلي يمكنها من قبض أجرتها في اليوم المعلوم ..

ومن هنا نستطيع القول: أن فن الرسم أو التصوير أو النحت هو فن خالد .. لا تستطيع التكنولوجيا، ولا أية أداةٍ من أدوات هذا العصر أن تحلّ محله .. أو تقوم بعمله .. أنه فن رفيع خالد في الزمان والمكان .. يضع أصحابه في صفوف عظماء العالم .. ويجعل من إبداعاتهم تراثاً إنسانياً راقياً خالداً لا يكاد يرقى إليه فن من الفنون .. هذا الفن الخالد .. هل نجا من موجات التجريب والتخريب؟ .. وهل ما عبثت رياح التجريد بأصوله ومنابعه؟ .. وكيف يستطيع الشباب في هذا العصر أن يتكيفوا بذائقتهم الفنية .. وصولاً إلى المتعة والفائدة في لوحة من لوحات عصرهم؟

نعم .. لقد امتدت يد التغيير إلى هذا الفن الخالد فعبثت به عبثاً شديداً .. وربما لم يصل إلى حالته من العبث سوى فن الشعر ... لقد ظهرت المدارس الفنية الحديثة وبأسمائها العصرية: السريالية والتكعيبية

والتشكيلية، لتؤكد على أن هذا العصر قد امتد إلى فن عمره مئات السنين فغيّر معالمه .. وقلبه ظهراً على عقب .. إلا من رحم ربي ..

ذهبت ذات يوم من الأيام مدعواً لحضور معرض لفنان تشكيلي ... فعبرت إلى قاعة واسعة علقت على جدرانها عشرات من البراويز التي تضم اللوحات المعروضة .. فدرت من داروا .. وتفرجت مع من تفرجوا .. وابتسمت لكاميرات التلفزيون مع من ابتسموا .. ولكنني لم اشاهد سوى خطوط وألوان تتقاطع على أرض اللوحة .. مع نتوؤ هنا .. وضمور هناك .. مع زرقة هنا .. ولون رمادي هناك .. مع ملامح بشرية مشوهة .. وجه، شعر..ساق لا علاقة له بالألوان حوله .. حاولت أن أتوقف طويلاً أمام لوحاته.. اتأملها .. أظهر أمام من يحاورني من المتفرجين بمظهر المثقف الواعي الذي يستوعب التجديد، ويغوص إلى عمق الأشياء، ثم أشرح له ما فهمت .. ولكنني لم أتمكن من التقاط حالة واحدة من الحالات التي تمثلها أية لوحة من اللوحات .. فقلت لصديق لي عليه دالة:

- هل فهمت شيئاً؟ .. أنا لم أفهم ولم يصلني أي معنى من معاني هذه اللوحات، ابتسم صديقي وتواصل الحوار:

- ستبقى طول العمر رجعياً .. معقول يا رجل؟؟

أقسمت له بأن ما أشاهده هو غير مفهوم بالنسبة لي .. ورحم الله ارمئ عرف قدر علمه .. وأنني أحتاج إلى شرح ولو للوحة واحدة من هذه اللوحات .. فعسى أن تفتح الطريق أمامي إلى إدراك ما تتضمنه لوحات أخرى ... أمسك بيدي ومضى بي إلى الوقوف أمام لوحة مرَّ أمامها الناس .. كي نستطيع أن نقف أمامها طويلاً، كانت اللوحة عبارة عن بقع من الألوان الزرقاء ... إلى جوارها ألوان رمادية تمتد منها خطوط خضراء ...

ينتهي أحد هذه الخطوط بوجه بشري مشوه .. وينتهي خط آخر إلـــى يــد بشرية ذات ثلاث أصابع .. وقال:

- أنظر إلى هذه اللوحة على سبيل المثال .. أنها تمثل القدر ... هل تلاحظ هذه البقعة الزرقاء الكبيرة، هل تراها؟؟

لم يترك لي فرصة الإجابة فاستدرك..

- أنها تمثل الحياة .. والحياة بحر كما تعلم ... والبحر لونه أزرق .. وهذه البقعة زرقاء، كما ترى.. أما هذه الألوان الرمادية حولها هل تراهــا .. خفت أن لا يفسح لي مجالاً للإجابة فقلت مسرعاً:

- نعم أراها ...

صمت طويلاً وكأنه يستجمع شتات أفكاره .. أو يزداد تحــديقاً فــي اللوحة كي يعطيني جواباً شافياً على سؤالي ... ثم قال:

- هذه البقعة الرمادية .. أو الظلال الرمادية هي عبارة عن الجانــب الجاف في الوجود الإنساني .. التراب .. الصحراء ..القحط .. الخواء ..

هززت رأسي متظاهراً بالفهم دون أن أفهم وتساءلت:

وهذه الخطوط الخضراء؟

ابتسم، فقد اعتقد أن مهمته معي قد باتت أكثر سهولة، فقال:

- عظيم: عظيم، هذه الخطوط الخضراء .. هي خطوط الأمل .. انظر كيف يتنبثق من اللون الرمادي كما ينبثق الأمل من اليأس ..

قلت:

- ولكن ما دامت هذه خطوط الأمل؟ .. فلماذا انتهى أحدها إلى هــذا الوجه البشري المشوه .. وآخر إلى يد ذات أصابع ثلاثة؟

ضحك ضحكة من يتحدث إلى جاهل أحمق:

– هذه آمالنا يا شاطر؟ .. أين تنتهي آمالنا في الغالب؟ .. إلا تنتهي إلى الإحباط والفشل؟ إلا تنتهي إلى التشوه والقبح؟ هه !! هل فهمت؟! قلت ببساطة:

– لا ...

ضرب كفاً بكف وهو يقول بالعامية :

«روح عنّاياه .. أي هو أنا فاضي؟»

قال ذلك والتحق بركب المتفرجين .. أما أنا فلم أرد أن أضيع تلك التجربة .. فطلبت من شاب آخر لا أعرفه أن يفسر لي مدلولات تلك اللوحة، نظر نحوي وعجب لأنه قد وجدني أكبر منه سناً... ولما أكدت له أنني جاد فيما أقول .. استجاب لطلبي .. وشرح لي موضوع اللوحة بحماس .. ولكن شرحه كان بعيداً كل البعد عن حكاية الحياة .. واليأس وخطوط الأمل ..

هذا بعض من كل .. وليس بعيدة تلك الحكاية التي نشرتها الصحف في الغرب كما روي لي: وهي أن رساماً كبيراً قد ترك بعض ألوانه في مكان معرض للعبث .. فانسكبت بعض الألوان على بعضها فوق ورقة من أوراق الرسم .. وامتزجت بطريقة غريبة .. وصادف في تلك الآونة أن مات ذلك الفنان .. ثم بدأ جمع تراثه الفني ولوحاته التي لم تعرض .. فكانت تلك اللوحة المكونة من الألوان المنسكبة عشوائياً في مقدمة لوحاته الخالدة .. وبيعت بملايين الدنانير .. وكتب عنها النقاد مشيدين بروعتها ودلالاتها .. وتمازج الألوان فيها تمازجاً يعبر عن قدرة ذلك الفنان في تكوين لوحاته، أنها اللوحة التي رسمت نفسها.. وهكذا نرى أن فن الرسم الحديث في معظمه .. قد تحول إلى فن مقلد للمدارس الغربية أو الشرقية الوافدة ..

واصبح عبارة عن طلاسم وخطوط متقاطعة .. وأشـكال غريبـة .. تجعـل مشاهدها في حيرة من أمره، ولولا شهرة الرسام وقوة نفوذه الإعلامي لمـا نظر إليها أحد، فكيف إذا كان ذلك الناظر .. هو شاب في مقتبل العمر .. لـه هواية النظر والتمتع باللوحات الجميلة .. المرسومة للطبيعـة: بحارهـا .. سهولها الخضراء .. أشجارها الهرمة ... أزهارهـا العطـرة .. أو للـنفس البشرية فتعبر عن أحزانها وأفراحها أو لحالة تاريخية لم تدركها كـاميرات هذه الأيام .. وسرعان ما يصطدم الشاب بهذه الخطوط الغريبة .. والألـوان المنساحة والرموز الغريبة .. إذ تحاصره هذه اللوحات من كل اتجاه. فهـو يراها معلقة في الأمكنة الراقية .. ويراها في المعارض المدعمـة بالدعايـة والإعلان .. ويراها حيثما اتجه لدى الأصدقاء الذين سحرهم الإعلام ففتنـوا بشهرة الرسام لا بلوحاته ..

كيف يمكن أن يتشكل ذوق هذا الشاب في المستقبل .. وماذا يمكن أن يفعل أمام هذا الوضع الغريب الذي وجد نفسه فيه؟. أنه من غزية أن غزت .. عليه أن ينظر ويبدي إعجابه على شكل آهات .. أو تصفيرات أو بهـز الرأس إعجاباً .. وإلا فاته قطار التقدمية وتهالك في مكانه نادباً حظـه .. مدافعاً عن الحق والخير والجمال في لوحات قلما ترسم .. وإذا رسمت فإن صاحبها سوف يتهم بالتخلف عن الركب، والعجز عن مجـاراة الـزمن .. ونقص الإطلاع على تطوير الحركة الفنية من حوله وفي العالم ..

وهنا يقف ذلك الشاب «وهو في هذا الكتاب يمثل جيله كاملاً» يقف أمام مفترق طرق ... فأما أن يصبح من غزية أن غزت .. وينـضم إلـى قائمـة التقدميين المطلعين على التطور والخروج عن النص المألوف .. وهؤلاء هـم الثوريون المجددون الذين يرفضون الماء الآسن ... ويجرون باتجـاه التقـدم

كما تجرى الانهار .. وأما أن يرفض غزية حتى لو غزت .. ويخلص لرؤيته ورأيه .. ويلتزم جانب الفن الحقيقي الموجه إلى الناس .. بمختلف أجناسهم ومستوياتهم الاجتماعية والفكرية .. هذا إذا كان فناناً .. وإن كان متذوقاً فإنه أمام خيارين: أما أن يرفع عقيرته بالصراخ رافضاً هذا الهراء متحدياً الموجة العاتية .. وإما أن يعتزل هذا الفن إلى غير رجعة، ثم يبحث له عن متعة أخرى .. في لعبة من ألعاب التلفزيون أو في قناة فضائية تصدر المتعة والإثارة .. والباب الذي يأتي منه الريح .. فإنه يسدّه ويستريح، وهنا مكمن الخطر ..

فلننظر إذن كيف يمكن أن تتشكل الذائقة الفنية عند الشباب في مجال تذوق اللوحات الجميلة .. اللوحات التي تقف أمامها ساعاتٍ وأنت تكتشف فيها ملامح جمالية خالدة .. وحينما تتركها وتعود إليها بعد أيام أو أشهر .. فإنك سرعان ما ترى لوحة جديدة .. وذلك لكثرة الأبعاد الجمالية الجديدة التي اكتشفها فيها في نظرتك الثانية، أو الثالثة أو الرابعة .. حينما تعلقها مع غيرها على جدران بيتك .. فإنك تشعر كل صباح أنك أمام مشهد جديد لا تملّ النظر إليه .. والأمتاع يأتي من الوعي، ولا وعي بدون فهم أو تدبر لما ترى.. ألا يدل على هذا على أن الشباب يواجهون في مجال تذّوق الرسم أو ممارسته أزمة لا تقل في رأيي عن أزمة متذوقي الشعر .. والقابضين على جمر الوفاء له؟!!.

-١٣-

أزمة التذوق – المشكلة والحل

أ- المشكلة

المشكلة باختصار شديد تعود في جذورها إلى حالة التردي الحضاري التي تعيشها الأمة رغم المظاهر التقدمية الزائفة .. هذه الحالة من التردي دفعت بالأمة أفراداً وجماعات إلى تقليد الأمم المتقدمة دون وعي .. تقليدهم بالمظاهر السطحية الزائفة .. الملابس، أصناف الطعام .. الحديث بالـ «فرانكو آراب» أي اللغة العربية المطعمة بلغة أجنبية – غالباً ما تكون إنجليزية- أو الأجنبية التي تتضمن مفردات عربية .. قلدناهم في مظاهر الاحتفالات الاجتماعية، والتمدن الشكلي الناعم المقرف.. قلدناه في التصنع والانحناء وتقبيل أيادي السيدات عند السلام.. قلدناهم في التسميات: فالحفلة أصبحت «بارتي» والدعوة إلى الطعام أصبحت «بوفيه مفتوح» والاستقبال أصبح «ريسبشن» وقلدناه بالأسماء الأجنبية التي أصبحت أكثر شهرة من المفردات العربية الأصيلة .. هذه شاورما .. وذاك ساندويش وتلك «كنتاكي» وهذه «تشكن تكا» ، وهذا همورغر .. أما عن أسماء المايونيز والصوجي والهوت دوج والأطعمة والمقبلات الأخرى فحدث ولا حرج .. فإنك قد تتوقف طويلاً أمام محل تجاري عليه لافتة بارزة مضيئة مكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية فلا تدري ماذا يبيع ذلك المتجر في الداخل .. وقد تقف أمام علبة معدنية أو زجاجية فيها مادة غريبة لا تدري كيف ولماذا تستعمل فتمضي من أمامها حائراً.

وليت التقليد الأعمى وقف عند هذا الحد .. فقد امتد إلى الفنون، الأدب، الشعر، الموسيقى والغناء، والرسم .. فراح الكتاب والشعراء

والرسامون يتطلعون إلى هناك .. إلى المدارس الغربية فيقلـدونها تقليـداً غير منطقي ولا مدروس .. إن كان قد تحقق هناك تغير أو تطور فقد حدث خلال مئات من السنين ... هناك تغيّر تدرج به الفنانون خطوة خطـوة .. وكان المتلقي معهم في كل خطوة .. كان هناك ارتقاء تدريجي أسـهم بـه الفنان وجمهوره من خلال الوعي والمتابعة والجرعة القابلة للهضم .. أما أن نختزل الزمن .. ونقفز إلى هذه المدرسة في الرسم على سبيل المثال .. أو ذلك النمط من الشعر على سبيل المثال أيضاً: نختصر مئات السنين فـي أيام معدودة .. فنهرع إلى الجديد لأنه جديد .. لا نحسب نتائجه ولا نفكـر في عواقبه .. كل إفرنجي أبر نجي» كما يقول المثل: نتباهى ونتسابق فـي أينا صاحب الريادة في لبس هذا الموديل أو ذاك أو الرقص على هذا اللحن أو ذاك .. أو ركوب هذه السيارة أو تلك .. أو حمل هذا الخلوي واستعماله دونما سبب أو حاجة..

المشكلة إذن هي في القفزة غير المدروسة، والنقلة غير المـسحوبة من واقع إلى واقع .. من واقع كنا فيه إلى آخر لم نسهم في صناعته، هذه القفزة التي جعلت من الأسماء الأجنبية في مجالات الأدب والفن والمـسرح أسماء مرجعية لا يرقى إليها الشك.. فإذا ما قرأنا قصيدة مترجمة ليلـزاك في ديوانه أزهار الشر .. سرعان ما تصبح هذه القصيدة هـي دسـتورنا الشعري، علماً بأن اسم الديوان كله مرفوض فالأزهار في نظر العربي رمز خالد لا يمكن أن يكون فيه جانب شرير .. ولكن الاسم العظـيم ليلـزاك .. والرغبة في محاكاته قد أخرجتنا عن المألوف في شكل القصيدة ومفهومها .. وتواري الفراهيدي في أعماق بحوره الشعرية وخبا المتنبي وشوقي في الوجدان حتى كادا أن لايصبح لهما وجود.

هذا أصل المشكلة وجذورها .. أما العامل الحاسم الـذي أشـعل أوار هذا المشكلة ولم يعمل على إطفائها .. فهو الإعلام .. نعم، أنـه الإعـلام المسوق لهذه الأشكال الهجينة الغريبة من أشكال الأدب والفنون .. لقد كان بالإمكان أن لا تتنامى هذه الموجه .. وأن تموت في مهدها لـو جوبهـت بوقفة إعلامية رافضة .. والرفض هنا لا يعني رفضاً للجديد .. بـل هـو رفض للهجين المستهجن من تلك الأشكال .. فالإعلام كمـا أعـرف هـو المؤتمن على المعلومة والذوق .. والسد المنيـع أمـام تيـارات العبـث والانحراف بهذا الذوق عن مساره، الإعلام هو القابض وحده على شـكل المستقبل الآتي، والقادر على تشكيله أن كان ذلك التشكيل سلباً أم إيجاباً .. أن عليه – أي الإعلام – أن يصنع البـرامج الفاعلـة المـؤثرة المتمثلـة بالحفاظ على التراث .. ورقي الأذواق .. وجذب الناس من جمهور الشباب بخاصة إلى كل ما هو نافع ومفيد، الإعلام هو الذي يعطي وهو الذي يمنع.

الإعلام هو الذي يصنع النجوم من التراب ويجعـل التـراب مـأوى للنجوم.

الإعلام هو الذي يصنع الذائقة الفنية لكل الأجيال.

ولكن الإعلام وبكل أسف قد أصبح – عن وعـي أو غيـر وعـي – يصفق لكل جديد، لكي يقال أنه اعلام متطور مواكب للعـصر .. ولكـي لا توجه إليه تهمة التخلف والقعود باكياً على الإطلال .. ولم لا؟...

– أليست الإطلال هي مضاربنا وبيوتنا في الماضي؟

– أليـست الإطـلال هـي مهـد صـبانا وشـبابنا وإبـداعنا الشعري والأدبي؟

- أليست الإطلال على ندرتها هذه الأيام هي مجال خيالنا حينما نريد التحليق مع الذكريات؟

- وهل يستطيع كائن من كان أن يعيش بلا ذكريات؟

لقد كانت هناك تعريفات كثيرة للإنسان فمنهم من قال:

- إن الإنسان حيوان ناطق .. وحينما نطق الببغاء بحثو عن اسم آخر ..

- فقالوا إن الانسان حيوان ضاحك .. والقرود تضحك ..

إذن لابد من البحث عن اسم آخر .. فكانت مقولة الإنسان حيوان يتألم .. ولما قام العلماء بدراسة ملامح الألم على كثير من المخلوقات .. ووجدوا أن الحوت يبكي وقد ينتحر .. ظل البحث جارياً عن تسمية للإنسان إلى أن توصلوا إلى حالة فريدة لا يشارك الإنسان فيها أي مخلوق .. وهي أن الإنسان كائن له ذكريات .. والذكريات تكون للماضي .. للأطلال .. فلماذا لا نقعد على الإطلال ونبكي؟ ليكون بكاؤنا أدباً خالداً صادقاً في الزمان والمكان؟

الإعلام إذن هو الذي شجع الموجات الوافدة باسم التحديث أنه لم يشجعها وحسب .. بل عمد إلى طمس الماضي قليلاً قليلاً .. حتى اضحى الأصل هو ما نراه هذه الأيام .. أما ما مضى .. فهو مرجع قد نعود إليه بين الحين والآخر .. في ذكرى أو مناسبة .. ويمر على وسائل الإعلام مرور الكرام دون أن يترك أثراً .. أو يحدث تأثيراً إيجابياً في الذائقة التي تشكلت على نمط جديد لا مكان فيه للإبداع أو الفن أو الارتقاء .. ولما كان الإعلام قد فتح أبوابه على مصاريعها .. فقد عبر منها كل راكب موجة إلى هدفه .. إذا كان الإعلام هو الذي ينحي هذا المنحى فلماذا أعاند الموجة الجديدة

العاتية .. من يتزوج أمي فهو عمـــي .. ولا مجـــال للوفـــاء أو الإخـــلاص للرسالة الإعلامية الجادة .. وإذا ما حاول إعلامي رافض للعبث أن يتـــصدى للموجة العاتية فإن الموجة سرعان ما تقذف به إلى مكان بعيد ..

ومن هنا .. ومن صلب هذه المشكلة نبعت الغربة بين الفن الحقيقـــي بمختلف أجناسه وأشكاله وبين الإعلام .. حتى أصبحت بعـــض الـــصحف تجاهر برفضها أن تنشر القـــصيدة العموديـــة .. أو القـــصة ذات الطـــابع الكلاسيكي المألوف، في الوقت الذي تحبر فيه عشرات الصفحات بقـــصائد يقال مرة أنها نثرية، ومرة أنها من شعر التفعيلة ... ومرة أنها حديثـــة .. خبروني بربكم، كيف تكون القصيدة نثرية؟ أليس النثـــر نثـــراً، والـــشعر شعراً؟؟ هل يمكن أن تكون البرتقالة تفاحة برتقالية؟! .. وخبروني بـــربكم ما جدوى القصيدة إذا كان القارئ يعبر فيها .. ويخرج منها متمكنـــاً مـــن الصمود حتى نهايتها .. دون أن يفهم شيئاً .. وإذا ســـألته قـــال لـــك: أن المعنى في بطن الشاعر .. وإذا ما هرعت إلى الشاعر تسأله عن المعنـــى، فإنه يرد عليك بفوقية قاسية .. حتى أنا لا لأفهم شعري ..

وعلى القارئ أن يفهم .. وإن لم يفعل فلا يقرأ شعري .. أنا شـــاعر النخبة .. أنا شاعر الصفوة .. ولا أكتب للرعاع .. أليست هذه مشكلة؟

وما ينطبق على الشعر ينطبق كذلك على الموسيقى والغنـــاء .. فهـــبط الفن حتى أضحى في معظمه مسخاً لا يطاق .. واعنـــي لا يطـــاق مـــن قبـــل أصحاب الذائقة التي تشكلت في زمن ما .. فتلك هي الأغنيات الرافضة تمـــلأ ساعات البث على شاشات التلفزيون .. وتلك هي أم كلثوم تتمنى – في قبرها – أن تحصل على فرصة تقدم فيها أغنياتها على شاشة التلفزيـــون كفرصـــة المطربة س .. أو النجمة ص .. ويتمنى محمد عبدالوهاب وفريـــد الأطـــرش

.. أن يكون لهم إطلالة على الشاشات الفضية بعدد مرات يعادل ما يعطى للمطرب الوسيم «س» أو المطرب «ص»..

إذن فقد ذهب عبدالوهاب صاحب الريادة .. لو ميعد جمهور الشباب يعرفون أغنيات مثل دعاء الشرق .. أو النهر الخالد أو كليوباتره .. ومضى فريد الأطرش .. وأسأل أي شاب إذا كان يعرف اسم أوبريت من أبوريتاته الخالدة أو أسأله هل سمع بأغنية نجوم الليل؟ .. فإنه سوف يهز رأسه ويقول: فريد .. أنا سمعت به .. أليس هو الذي غنى «يا عوازل فلفلوا؟».. أما أسمهان بأغنياتها الخالدة .. فإن أي شاب من هذا الجيل لم يسمعها وهي تغرد كالطائر .. بأغنيتها التي لحنها محمد القصبجي: يا طيور .. أو الأغنية التي كتبها بشارة الخوري: أسقينها بأبي أنت وأمي ..

هذه مشكلة حقيقية تتعلق بالذائقة الفنية للشباب .. رغم محاولات بناء العلاقة الوهمية مع الجذور .. وتكمن خطورة هذه المشكلة ليس في تأثيرها على هذا الجيل من الشباب وحسب .. ولا على الأجيال التي ستأتي بعدهم وحسب .. بل على الذائقة نفسها .. تلك اللحظات الزمنية العزيزة كالحياة التي ترتعش فيها مشاعر القارئ أو السامع أو المتفرج على لوحة .. ترتعش نشوة وتفاعلاً ولذة مع المادة الفنية المقدمة .. وأنها لكذلك خطر على الفن الأصيل نفسه والذي سيتوارى أصحابه خجلاً وعفة، أو سوف يعتزلون الفن.. ويعلنون الاستسلام للجحافل الجديدة القادمة بما هب ودب من الفن الراقص .. أو الفن الموغل بالطلاسمية والغموض .. هذه هي المشكلة .. فهل هناك حل؟؟!

-١٣-

أزمة التذوق – المشكلة والحل

ب – الحلّ

والحلّ في هذه المعضلة يكمن في إنقاذ ما يمكن إنقاذه .. ومحاولة الانتباه لوجود المشكلة أصلاً .. والحلّ لذلك في وجود قرار يتحدى العاصفة الهوجاء التي هبت على الأذواق من كل اتجاه. هذا القرار سوف يجابه بمقاومة شديدة من هنا وهناك ..سوف يتصدى له أصحاب المدارس الجديدة دفاعاً عن مصالحهم الذاتية في الواقع، ودفاعاً عن التجديد والتطوير في الظاهر، سوف يصرخ هؤلاء بملء أصواتهم: «الله أكبر .. أنهم يحاربون التطور .. واتلطور سنة الحياة .. أنهم يحرمون الشباب مما يحبون .. أنهم يريدون العودة إلى الوراء والعالم كله يتقدم» .. سيكون هذا منطقهم وهذا صوتهم .. وهو في ظاهره صحيح .. ولكنها كلمات حق يراد بها باطل ..

– فهل التأكيد على سماع عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش هو عودة إلى الماضي؟ ..

– وهل مطالعة روايات محمد عبدالحليم عبدالله والمنفلوطي ويوسف السباعي هي حرب على الرواية الحديثة؟..

– وهل التأمل بلوحة العشاء الأخير لدافنشي هي حرب ضروس على رسامي هذا العصر؟..

كلا بكل تأكيد .. ولكنها إعادة تربية وتأهيل للذوق العام عند الشباب .. أنها فترة نقاهة لكي يصح ويتعافى ويعود إلى سابق عهده في التعامل مع الفنون المطروحة عليه .. أن المطلوب منه ليس العودة إلى الماضي

والبكاء على الاطلال .. بل الارتباط مع ذلك الماضي «الجذور» ولانطلاق من هناك .. الإبداع من أصيل جديد. لماذا لا تلتقي الأصالة والمعاصرة في عمل واحد صاحبه غداً؟ لقد تسربت إلى أذهاننا مقولة خاطئة بأن كل قديم هو أصيل .. وأن كل جديد يخلو من الأصالة على العكس تماماً.. إن في الجديد ما يحوي على بذور أصالة حقيقية ويرتبط مع التراث بالمعادلة الفنية دون غيرها .. فهناك عدد لا بأس به من الأغنيات .. والقصائد .. والروايات واللوحات التي كتبت وأنجزت في هذا العقد الذي نعيش فيه .. وفيها من الأصالة أكثر مما في بعض سابقاتها التي أنجزت قبل خمسين عاماً ..

ففي الحاضر بعض الأصالة .. والعكس صحيح .. إذ أن في ما مضى بعض الركاكة .. وفي الحاضر ما هو أفضل منها .. إلا أن الفارق بين العصرين هو الغالب في الإنتاج الفني .. فالغالب هناك هو الأصالة والإبداع والغالب هنا هو الركاكة والسطحية .. والسبب أن ذلك الزمان ما كان يسمح لمطرب على سبيل المثال أن يصبح مطرباً .. وتقدم له أغنيات في الإذاعة إلا إذا اجتاز عدداً من الاختبارات التي يجريها له عدد من أساتذة ذلك الفن الذي يريد سلوك طريقه .. فالمطرب آنذاك كان ينبغي أن يمر على لجنة استماع مشكلة من عمالقة ذلك الفن كمحمد عبدالوهاب .. والقصبجي .. ثم تناقش أغنية أو مسيقاه كما تناقش رسائل الشهادات العليا هذه الأيام .. وأن استطاع أن يكون محظوظاً، ويجد مدخلاً للوصول إلى بث أغنية له من الإذاعة .. فإنه قد وصل ونجح ومضى في طريقه ليحافظ على هذا النجاح ..

أما هذه الأيام .. فقد فتح الباب على مصراعيه لكل من هب ودب لكي يغدو مطرباً .. أو شاعراً، أو كاتباً .. أو رساماً .. ولأحد أحسن من أحد، فشروط الوصول هو الشباب والوسامة للرجال .. والجمال والجرأة

للنساء ..ووجود مال يستطيع المطرب من خلاله أن يحـول أغنيـة إلـى «فيديو كليب» .. أو إنجاز البو جديد .. آلات موسيقية تعزف .. ومطربون يرقصون .. وكاميرات حديثة .. وإكسسوارات مكلفة ومحسنات للصوت .. ومقابلات على شاشات التلفزيون، ومكالمات هاتفية قد تبدأ من المـتكلم أو المتكلم بكلمة «شو هالطلة الحلوة؟» بدل شو هالصوت الحلـوأو الأغنيـة الحلوة ؟ .. فيصدق ذلك الشاب نفسه ويواصل مسيرته الراقصة .. بدل أن يتوقف ليقال له: أين منابع الفن في عملك الغنائي؟ .. أين الجديـد؟ أيـن الإبداع؟ .. أين التميز؟ .. أين التفوق؟ .. في أيام زمان ما كان لمطرب أن يخرج ليغني على نمط فريد الأطرش إذ لا حاجة لهم به .. ففريد موجود .. وحينما ظهر عبدالحليم وحاول الكثيرون تقليده ظلوا في مكانهم .. إذا لـم تكن للمطرب خصوصية يعرف بها فما حاجة المستمع إليه؟ وكذلك الكاتـب والشاعر والرسام ..

أن خير دليل على أن لا تعارض بين روح العصر وبين الإبداع هـو المطرب السعودي الرائع محمد عبده .. فمحمد عبده رفض التجيد إلا فـي مواطن التجديد .. بالكلمة .. كلمة العصر .. وبالنغمة نغم العصر .. وظـل كيانه كمطرب شامخ .. لم يرقص .. لم يتعامل مع الفيـديو كليـب رغـم الإغراءات الكثيرة .. لم يتقدم إلى الناس بمظهره .. ولا بالملابس البراقـة الملونة .. بل تقدم إليهم بصوته .. وبموسيقاه التي تصاحب ذلك الـصوت .. فأبدع بلغة العصر ومفرداته الغنائية أيما إبـداع .. وتـصدى للروائـع الغنائية الصعبة فغنى «أنشودة المطر» للسياب .. وأنها في اعتقادي لا تقل روعة عن أي من الكلاسيكيات العريقة الخالدة ..

وغنى للشباب: أرفض المسافة، أبا اعتذر، بنت النور .. ليلة خميس .. فارتقى بأذواق الشباب .ز وسما بوجدانهم إلى الذرى ولكن الموجات المعاكسة ظلت هي المهيمنة .. وظل المتعاملون معها في المقدمة من حيث التأثير بالشباب وتخريب ذوقه وذائقته .. صحيح أن البقاء للأصلح والأفضل .. ولكن مع الذائقة .. فإذا ماتت الذائقة فإن البقاء لن يكون لشيء.

بل هي وجبات سريعة .. تظهر .. ثم تختفي .. ليظهر غيرها .. وهكذا .. أي فن كل يوم بيومه أو يكون البقاء للأسوأ..

أما إذا تحدثنا عن الحلّ .. فأنني لا أتصوره في التربية البيتية ولا في التربية المدرسة، وأن كان لهما في الواقع بعض التأثير .. فالشباب قد يتأثر بما يسمع والداه .. وبما يقرأ معلمه .. ولكن التأثير الأكبر هو الأصدقاء وما يسمعه ويراه على شاشة التلفزيون أو السينما .. وما يقرأه في الصحف ..

فالحلّ إذن يكمن في الإعلام .. وأن يكون الحلّ على شكل قرار .. يشترك فيه كل دول المنطقة العربية .. ولا أقول العالم .. وأن توضع استراتيجية اعلامية أخلاقية شاملة .. وأن تكون هناك رقابة على ما يكتب ويغني ويرسم من قبل لجان مشهود لها بالتفاعل مع الوجدان النقي للمتلقي في شتى الفروع ..

- ففي مجال الشعر والأدب على سبيل المثال: تتوقف الصحف والمجلات والإعلام المرئي والمسموع عن التعامل مع شعراء وكتاب يكتبون لأنفسهم ويخفون عجزهم عن كتابة الشعر والنثر وراء كلمات كبيرة غامضة .. ويجدون في الغموض هيبة .. فإنك إذا لم تفهم شيئاً .. ساورك الخوف منه .. وأن لا يسمح لهم بطباعة كتبهم ولا دواوين ما

يسمى بأشعارهم حفاظاً على الـذوق العـام .. وأن تكـون هنـاك لجنـة متخصصة في دائرة المطبوعات لهذا الغرض ..فلا يفلت منهـا كتـاب أو ديوان لشعر إلا إذا ثبت بالوجه القاطع أنه إضافة جديدة متغيرة إلـى الأدب العربي .. وأن يكون لقب كاتب شهادة لا يتم الحصول عليها بسهولة.

- وفي مجال الموسيقى والغناء .. يكون التعامل بالمثل مـن حيـث الرقابة على الإبداعات الموسيقية والغنائية .. فلا يسمح لمطرب أن يتعامل مع الإذاعة أو التلفزيون إلا إذا مرّ لحنه وأغنيته عبر اختبـارات عديـدة وصعبة.. وفي حال قبولها فإن الطريق يغدو مفتوحاً أمام صاحبها لإبـداع شيء جديد، على هذا المطرب الواعد أن يكون متميزاً ولا يكون الجمهـور هو الحكم.

- أما في مجال الرسم .. فإن الساحة لا تحتاج إلى الكثيرين .. أننـا في عصر الكاميرات اللاقطة بوضوح مذهل .. ونحن في عصر التـصوير السينمائي والتلفزيوني .. الذي يلتقط في ثانية واحدة عشرات الصور ومن أماكن بعيدة .. إننا بحاجة إلى الفنان الذي يرسم أعماق الروح فـي وجـه إنساني .. أو أعماق التربة في غصن جاف معبر .. أو أعماق الإحـساس إلى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي من خلال جدول جاف .. وحوله وجوه تكتنفها الحيرة والألم .. الرسام هو صاحب فكرة .. صاحب صـورة .. لا أقول فكرة كاريكاتيرية ضاحكة .. بل فكرة إنسانية يعبر عنها بجمالية تعجز أمامها أحدث كاميرات هذا العصر ..

وباختصار فإن الحل يكمن في الرقابـة الإعلاميـة علـى النتاجـات الإبداعية، وأن يكون الإعلام هو الناقد .. هو الموجة .. هو الداعم للفنـان الحقيقي .. وليس العكس .. فالإعلام أحياناً تراه يسعى إلى الفنـان الـذي

اكتسب شعبيته من المهرجانات الراقصة .. أو أشرطة الفيديو كليب الساذجة .. فنرى هذا الفنان قد تربع على قاعدته الجماهيرية – بغياب التذوق طبعاً – ثم راح يتحدث إلى هذا البرنامج من التلفزيون، أو إلى ذلك الصحفي في الجريدة .. بما يوحي أنه المتفضل على هذا البرنامج، والداعم للصفحة الفنية في الجريدة.. لقد أصبح هو القيم على الفن .. يتحدث .. وينظر .. ويرد على مكالمات المعجبين والمعجبات .. ويزداد في كل يوم قوة ورسوخاً.

والحلّ يكمن أيضاً في تلك الاتحادات والروابط والنقابات التي تفتح أبواب عضويتها لكل من كتب مقالاً في صحيفة، أو كان لديه بعض المال فطبع به كتاباً أو أنتج به أغنية.. وحينما يصبح عضواً فإنه يتنفس الصعداء .. ثم يعلن نفسه كاتباً أو فناناً .. وأنه عضو رابطة كذا أو اتحاد كذا .. أو نقابة كذا .. ثم يأتي مثله كثيرون حتى يختلط الحاب بالنابل .. ويتواري الفنان الحقيقي – وهو غالباً عفيف خجول – في الظل لائذاً بفنه، آملاً أن يتم إنصافه في يوم من الأيام.. ومن هنا فإن بعض الحلّ يكمن في وضع شروط وأنظمة صارمة للعضوية .. وأن يكون حصول المبدع على عضوية هذه الهيئة الثقافية والفنية أو تلك عرساً حقيقياً .. وإنجازات يحتفى به أكثر مما يحتفل الحاصلون على الشهادات العليا أو المناصب الرفيعة. وعندها تكون للعضوية معناها وهيبتها .. ويغدو الحصول عليها هو غاية كل مبدع .. وانطلاقاً من هذه الحقيقة .. وكما هو الحال مع الحد من نشر الكتب ذات المستوى الهابط .. وأن تكون هناك في دائرة المطبوعات لجنة م الأدباء والمفكرين المتخصصين .. تكون مسؤولة عن رقابة الفن من حيث قميته الإبداعية أو الفكرية .. وهل يصلح هذا الكتاب أن يكون من منشورات

هذا الوطن؟. وأن لا تقتصر الرقابة على النواحي الأمنية أو المحظـورات الدينية والسياسية .. فكثيراً ما ترى كاتباً يتقدم لعضوية مؤسـسة ثقافيـة ويقول لك .. أنا عندي خمس كتب كلها مجازة من المطبوعات .. وموثقـة في المكتبة الوطنية .. وابحث لها عن ناشر .. هذا الوضع لابد أن تكون له نهاية، وأن تكون إجازة الكتاب من المطبوعات عملية صعبة .. وفي حـال الإجازة فإن على دور النشر أن تتهافت على شراء حقوق طبعه وتوزيعـه .. وإذا ما طبع فإن المكتبات العامة .. ومكتبات مدارس التربية والتعليم .. أن تسعى إلى الحصول على نسخة أو نسختين منه لكل مدرسة.

والمعنى أن يكون الأدب والفن عزيزاً .. فإذا كـان قلـيلاً .. فهـو كالذهب عزيز .. وإذا ما صول أحدنا إلى درجة كاتب فإن هذا يعني أنه قد حقق لنفسه ولشخصيته مكانه بارزة في المجتمع الذي يعيش فيـه .. فـلا يعود يسعى إلى لقمة العيش .. أو طباعة أو بيع عدد من النسخ .. وكذلك الفنان أو الرسام .. وهذا لا يعني إغلاق الباب أمام الواعدين .. فالواعدون ينبغي أن يكون لهم تشريع خاص يكفل استمرار تقدمهم .. وتنمية مواهبهم حتى الوصول إلى درجة كاتب أو فنان .. وأنا أضع خطين تحت كلمة درجة ولكن العكس هو الذي يحدث: فما أن يطلع المطرب بشريط حتى نال لقـب أستاذ .. وما أن يكتب الشاعر أول قصيدة له حتى يبدأ الـشك بـشاعرية المتنبي وشوقي .. وما أن يخط الفنان بعض ألوانه حتى يـصبح الفنـان الملهم المبدع .. ومن هنا تكمن الخطورة على التذوق .. فالإعلام قد يدعم هؤلاء من أجل استمرار عطائهم .. ولكنهم سرعان ما يصدقون أنهـم قـد أصبحوا عظماء . ولهـم جمـاهير .. والحـديث إلـيهم لابـد أن يكـون بمواعيد مسبقة ..

فالحل إذا يكمن في وضع الأمور في مداراتها الحقيقية .. وأن يكون هناك ميزان صارم للفن توضع فيه مجمل الأعمال الإبداعية كيفاً لا كماً، ثم يقيّم على أساسه..

-١٤-

وأخيراً

وأخيراً لابد من الاعتراف بوجود المشكلة.. والاعتراف أولاً أن للذائقة الفنية عند الشباب دورها في تشكيل الوعي والسلوك والشخصية، ولاقدرة على الفعل في ساحة الحق والخير والجمال، وإذا ما عترفنا بدور التذوق وأهميته .. ثم نظرنا فوجدنا هذا التذوق قد تحول إلى مشكلة متجذرة يبدو حلّها الفعلي أقرب إلى المستحيل، لابد من الاعتراف بعد ذلك .. أن الزمام قد أفلت من أيدينا .. أننا نكون والحالة هذه قد تلاعبنا في أمانة عزيزة غالية ..وضعت في أيدينا .. غضضنا الطرف حتى استفحل المرض، فهل نجلس مترقبين لحظات الموت القادمة بكل تأكيد؟..

الجواب في رأيي هو لا .. هناك بصيص أمل .. وهناك درب شاحب نستطيع أن نسلكه رغم العتمة لإصلاح ما يمكن إصلاحه .. وهناك ما زال بين ظهرانينا من يستطيع أن يستدل على شعاب هذا الدرب ومسالكه.. لابد من الصراع .. لابد من الانتفاضة الروحية ضد التوافه التي أضحت مسلمات .. وأضحت هي الأصل .. ضد الغوغاء المتسربلة برداء الجماهير والضاربة بسيفها «الجمهور عاوز كده» الشباب بدهم يرقوا ويغنوا وينبسطوا «القديم راح احنا اولاد اليوم».. كل هذه العبارات صحيحة.. والجمهور عاوز كده ولكن ماذا نريد نحن للجمهور؟

* هل الجمهور هو المبدع أم نحن؟..

* هل الجمهور هو الذي يرتقي بأذواق الفنان أم العكس هو الصحيح؟..

نعم الجمهور يريد .. لماذا أراد جمهور أم كلثوم روائعها التي نعرفها جميعاً؟ .. ولماذا كان ذلك الجمهور يجلس ساعتين متواصلتين وهو يستمع إلى «ربيع» فريد الأطرش دون أن يرقص؟.. ولكن لأن يستمع ويستمتع لعشرين سنة متوالية ..

أما المقولة الثانية والشباب بدهم يرقصوا ويغنوا وينبسطوا هذا حق لهم .. ليرقصوا ولكن ليس في وصلة الغناء .. ويغنوا لكن ليس بوجود مطرب مكلف بالغناء .. وينبسطوا ولكن من خلال ذوق رفيع يعطي الفرح معناه ..

لا من خلا ل«هيصة وهليلة» لها أول وليس لها آخر .. وتبقى مقولة لقد ذهب القديم فنحن أبناء اليوم .. هذا صحيح .. لقد ذهب القدماء .. ونحن أبناء اليوم .. ولكن هل يعني هذا أن اليوم يجب أن يكون خالياً من الفن الأصيل؟ لقد اتفقنا .. أننا لا نريد عودة العمالقة .. بل نريد عمالقة جدد يقدمون فناً راقياً بمفردات هذا العصر ولغته .. وهناك من يفعل ذلك في مجالات الموسيقى والغناء والشعر ولاقصة .. ألم يكن نزار قباني الذي مات قبل عام هو من عناصر التشكيلة الفنية لهذه الأيام؟ كيف أنشد وأبدع؟.. وكيف أبدع ويبدع محمد عبده وطلال مدّاح .. ليذهب القديم .. لا نريده .. ولكن نريد مثله من حيث التفوق والإبداع ..

وأخيراً.. فإنه لا عذر للقائمين على الإعلام .. والمؤتمنين أمانة غالية وعزيزة على أذواق الشباب في أن يغضوا الطرف عما يجري بل عليهم أن يتنبهوا .. ويقوفوا هذا الاندفاع الرهيب نحو هاوية القحط الفني والخواء الفكري .. وأن يعودوا إلى القديم .. فهو جذورهم .. وأن يتعاملوا مع الماضي فهو تراثهم .. فإذا أخذنا الغناء على سبيل المثال فإن باستطاعة

تكنولوجيا الحاضر ان تبعثه حيا .. الصوت موجود .. فلماذا لا يتم تسجيله من جديد على مشاهد حية من الطبيعة .. ومن خلال سيناريوهات يتم وضعها لكل أغنية على حدة .. حتى تسمعه أجيالنا فتحلل وتتذوق وتقارن ثم تختار .. كم من أبناء هذا الجيل من الشباب قد سمع بالقصيدة الرائعة التي كتبها صالح جودت ولحنها وغناها فريد الأطرش تحت اسم:

أسأل الفجر والغروب   وأسأل الشمس والقمر

أي غيب على القلوب   خطه كاتب القدر؟

هذه الأغية لا أخال أحداً من شبابنا قد سمعها .. وأعطى الفرصة كي يتذوق معاني كلماتها وألحانها .. فيقول قائل : لسوء الحظ .. هذه الأغنية غير مسجلة إلا للإذاعة .. وهي غير مسجلة للتلفزيون .. والتلفزيون هو الوسيلة الإعلامية الأكبر تأثيراً في أذواق الشباب .. هذا الكلام صحيح ولكنه ليس بالعذر المانع .. إذ باستطاعة أي كات أو شاعر أن يضع لها سيناريو يتناسب مع معاني القصيدة، ثم تسجل الأغنية للتلفزيون على خلفية من مشاهد للفجر والغروب والشمس والقمر، وهكذا يمكن التعامل مع الروائع الأخرى: شمس الأصيل، النهر الخالد، ليالي الأنس في فينا، نبتدي منين الحكاية، الربيع ... وهكذا ..

المشكلة قائمة .. والحل موجود ولكن القرار هو الغائب .. والشباب هم الضحية رغم أنهم يغنون ويرقصون ..!!

وانتهى بفضل الله


الذخيرة العربية

يوسف الغزو

السيرة الذاتية C.V

أ- البطاقة الشخصية

١- من مواليد قرية الوهادنة – محافظة عجلون ٥ نيسان سنة ١٩٤٥م.
٢- عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ تأسيسها سنة ١٩٧٤م.
٣- عضو مؤسس في اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين سنة ١٩٨٧م.
٤- أمين عام اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين سنة ١٩٩٣م.
٥- رئيس لجنة العضوية في اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين سنة ١٩٩٣م.
٦- أمين سر الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال سنة ١٩٩١م.
٧- حائز على ميدالية الحسين للتفوق الأدبي لسنة ١٩٩٥م.
٨- يكتب في عدد كبير من الصحف والمجلات المحلية والعربية.

ب- المؤلفات الأدبية:

- المجموعات القصصية:

١- البيت القديم – عن رابطة الكتاب الأردنيين سنة ١٩٨١م.
٢- الأختيار – عن مكتبة ومطبعة شوقي سنة ١٩٨١م.
٣- وردة في الخريف – عن دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٨٧م.
٤- مسافات – عن دار النشر سنة ١٩٩٠م.

- الروايات:

١- الصديقان – عن وكالة الصحافة الأردنية سنة ١٩٧٦م.
٢- اللوحة – عن رابطة الكتاب الأردنيين سنة ١٩٨٢م.
٣- ثقوب في الجدار – عن أمانة عمان الكبرى ودار البازوري سنة ٢٠٠١م.
٤- قطر الندى – عن البنك الأهلي الأردني ٢٠٠٥م.
٥- تابكي – عن وزارة الثقافة ٢٠٠٦.

- المقالات في كتب:

١- أشواك لا تدمي القدمين ج١ عن جمعية وادي العرب سنة ١٩٨٥م.
٢- أشواك لا تدمي القدمين ج٢ عن دار الكرمل سنة ١٩٨٧م.

- الكتب المشتركة:

١- ألوان من القصة الأردنية – عن دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٧٣م.
٢- مختارات من القصة الأردنية – عن دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٧٦م.
٣- ١٧ قصة قصيرة – عن رابطة الكتاب الأردنيين سنة ١٩٧٥م.
٤- المطالعة والنصوص الأدبية للصف الثامن: مناهج وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٥م.
٥- كتاب لغتنا الجميلة للرابع الابتدائي: مناهج وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٥م.

- كتب الأطفال:

١- تفاحة آدم – قصص قصيرة – عن دائرة الثقافة والفنون سنة ١٩٨٩م.

٢- الشهيد – قصص قصيرة – عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ١٩٩١م.

٣- زهرة برية –قصص قصيرة – عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ١٩٩١م.

٤- المخترع الصغير – قصص قصيرة- عن دار الغزو والنشر والتوزيع سنة ١٩٩٣م.

٥- نسيم وريحانة – نص مسرحي – عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ١٩٩٣م.

٦- الديك الفصيح – قصص قصيرة – عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ١٩٩٩م.

٧- انشودة المطر – قصص قصيرة – عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠٠م.

٨- من هو البطل: قصة وقصيدة بالاشتراك عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠١م.

٩- بلال والهرّ الصغير – قصة وقصيدة بالاشتراك عن دار الغزو للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠١م.

جـ- المؤلفات الدرامية:

- التلفزيون:

١- اللغز : مسلسل بوليسي باللهجة المصرية من ٧ حلقات.

٢- نهاية صيف: مسلسل بوليسي باللهجة الفصحى من ١٠ حلقات.

٣- الكحتوت: مسلسل كوميدي باللهجة المحكية في ١٠ حلقات.

٤- في واحة الايمان: حلقات حوارية دينية في ٣٠ حلقة.

٥- مواقف الخالدين: حلقات حوارية دينية في ٣٠ حلقة.

٦- مشاعل الهواية: حلقات حوارية دينية في ٣٠ حلقة.

٧- الوان من الزمان: برنامج منوع في ١٠ حلقات.

٨- أجيال – بالمشاركة: مسلسل اجتماعي هادف ٣ حلقات.

٩- سهرات تلفزيونية درامية في ساعتين: ١-الحب الأخرس، ٢-ثمن الأمومة، ٣- الشرخ، ٤- الانتصار، ٥- غلطة مطبعية، ٦- نفوس زائفة، ٧- الأرض الصغيرة، ٨- التمثال رقم ٦.

- الأذاعة:

١- مسلسلات: أكثر من ٣٠ مسلسلاً ذي ٣٠ حلقة.

٢- برامج درامية:

١- ألوان في رمضان.

٢- صور من رمضان.

٣- مشاهد وصور.

٤- كلمة ونص.

٥- صدق اللي قال.

٦- طريق السلامة.

٣- قصص إذاعية وتمثيليات.

Curriculum Vitae

Name: Yousef Il. AL-Ghazo
Date of Birth: April ٥, ١٩٤٥, Al-Wahadneh Village, Ajloun, Governorate, Jordan.
Address: Amman, Jordan, P.O.Box ٩٠٤٤
Postal code ١١١٩١, Tel.: ٤٧٨٤٠٦٩
Member in : Jordan Writer Society, Since it was first extablished in ١٩٧٤.
Founder member: In the Jordan authors' and literate Union, ١٩٨٧, Secretary general of the union in ١٩٩٣.
Secretary of the national association for the education and teaching children ١٩٩١.
Received His Majesty's Medal for Literature Excellence, ١٩٩٥.
Writes in a large number of local and Arab newspapers.
Has a number of broadcasted stories from the Arabic section of BBc.

Author of the following literature books:
Novels:
١. The two friends ٢- The Plate ٣-Holes in the wall
- Stories' Collections:
١-The old bouse ٢- The choice ٣- A rose in Autumn
٤- Distances.
- Articles:
Thorns that do not hurt the feet, a collection of articles in two volumes.
- Joint Books:
A large number of books including reading books and essays for classes four and eight, Ministry of Education Curricula.

Children Books, Novel collections:
١- Adam's Apple ٢- The martyr ٣- A wild flower
٤- The small inventor ٥- The fluent cock ٦- The rain poem
٧- Naseem and Raihanah (for a play).
Autor of the following drama:
١- For T.V.e: Serials and plays and programs approx. ٧٠ TV hours.
٢- For the broad casting service: ٢٥ serials, and tenths of plays and programs.